دكتور عامر النجار

الإباضية

ومدى صلتها بالخوارج



دار المعارف



الإباضية
ومدى صلتها بالخوارج

تاليف
دكتور عامر النجار

الطبعة الأولى
١٩٩٣



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء :

إلى روح المفكر الإسلامى مالك بن نبى

أهـدى هذا الكـتاب

راجيا من المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل متقبلا عنده إنه سميع قريب

عامر النجـــار

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع الإباضية من الموضوعات التى شغلت بال كثير من العلماء . ويرى كثير منهم صلتهم الوثيقة بالخوارج وهذه دراسة حول الإباضية وفرقها وكان لابد لنا - فى البداية - من التعرف على الخوارج . وأهم مبادئهم قبل أن نعرج على الإباضية وفرقها حتى يتضح لنا فى النهاية مدى صلة الإباضية بالخوارج .

وكل ما أرجوه من الله عز وجل إن كان فى العمر بقية أن ييسر لى أمر إخراج دراسة عميقة كبيرة حول الفرق الكلامية القديمة والمعاصرة كما أرجو أن يكون عملى هذا متقبلاً عند الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون هذا الكتاب من العلم الذى ينتفع به .

إنه نعم السميع المجيب

العبد الفقير إلى الله

عامر النجار

البـــاب الأول

الخـــوارج

المبحث الأول

مدخل وتمهيد

١ - اختلاف المسلمين وأسبابه

٢ - كيف افترقت الأمة الإسلامية

أولاً : اختلاف المسلمين وأسبابه :

بداية نستطيع أن نقول إن المسلمين وقد اختلفوا فى اعتقاداتهم وسياساتهم وأمورهم الفقهية إلا أن هذه الاختلافات لم تكن فى أمر من أمور الدين معلوماً بالضرورة كتحريم الخمر ولحم الخنزير وأكل الميتة ، ولم يمس هذا الاختلاف من قريب أو بعيد جوهر الدين الحنيف ، فجميع المسلمين لا يختلفون فى أن الله واحد أحد فرد صمد فلا يشكون فى وحدانية الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ (١) ولا يشكون فى أن القرآن هو معجزة الرسول ﷺ وأنه وحيى الله المنزل إلى نبيه المصطفى ﷺ ولا يختلفون فى أصول الفرائض كالصلاة والزكاة والحج والصوم ، وإنما الاختلاف فى أمور لا تمس أركان الدين وأصوله العامة .

وكأن رسول الله ﷺ كان يتنبأ بما سيقع للمسلمين من اختلاف وذلك لون من ألوان الإعجاز الحديثى الشريف . فقد روى «البخارى» عن «زينب بنت جحش» زوج الرسول ﷺ أنها قالت :

استيقظ النبى ﷺ محمراً وجهه يقول : «لا إله إلا الله ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» وفى هذا القول إشارة نبوية شريفة إلى ما جرى بين المسلمين من اختلاف بعده (٢) .

---

(١) لا تعد السبأية من الفرق الإسلامية لأنها من الطوائف الذين عملوا على هدم قواعد الإسلام كما سنبين بإذن الله .

(٢) ينبغى أن نلاحظ أنه إذا كان الاختلاف فى الأمور العقدية شراً إلا أن الاختلاف الفقهى والاجتهاد فى غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة لم يكن شراً ولم يكن افتراقاً بل كان خلافاً فى النظر ، يقول عمر بن عبد العزيز «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يختلفون ، لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس فى ضيق وأنهم أئمةٌ يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة» الاعتصام للشاطبى جـ ٣ ص ١١ .

ويروى أن النبى ﷺ قال :

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة» .

ولقد تكلم العلماء فى صحة هذا الحديث الذى روى بعدة طرق وروايات متعددة وقال المقبلى فى كتابه العلم الشامخ « وحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة ، يشد بعضها بعضاً بحيث لا تبقى ريبة فى حاصل معناه ... ولفظ حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل . تفرّق بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة ، كلُّهُنَّ فى النار إلا ملّة واحدة» . قالوا يا رسول الله ، من الملة الواحدة ؟ ... قال : «ما أنا عليه وأصحابى» [1] وفى تفسير الفخر الرازى [2] روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فتهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة» قالوا يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية ؟ قال : «الجماعة الجماعة الجماعة ...» فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى : (وأن هذه أمتكم) الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى فى هذه السورة من التوحيد والنبوات وأن فى قول الرسول ﷺ فى الناجية إنها الجماعة إشارة إلى أن هذه أشار بها إلى أمة الإيمان وإلا كان قوله فى تعريف الفرقة الناجية إنها الجماعة لغواً إذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق إلا وهى جماعة من حيث العدد . وطعن بعضهم فى صحة هذا الخبر ، فقال إن أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الأديان فلم يبلغ هذا القدر ، وإن أراد الفروع فإنها تتجاوز هذا القدر إلى أضعاف ذلك ، وقيل أيضاً قد روى ضد ذلك ، وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة . والجواب – كما يرى الرازى – المراد ستفترق أمتى فى حال ما وليس فيه دلالة على

---

(١) نلاحظ أن كتاب الفرق الإسلامية مثل البغدادى والشهرستانى كافحوا بطريقة غريبة عجيبة حتى يجعلوا عدد فرق الإسلام مثل العدد المنصوص عليه فى الحديث .

(٢) اشتبه فى صحة هذا الحديث الإمام فخر الدين الرازى ١٢٠٩ م فى تفسيره «مفاتيح الغيب» جـ ٢٢ : ٢١٨ فى تفسير سورة الأنبياء الآتيين ٩٢ : ٩٣ (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون . وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون) .

افتراقها في سائر الأحوال لا يجوز أن يزيد وينقص (١) .

وإننا نرى أيضاً أن فرق المسلمين الاثنين والسبعين ليسوا كفاراً فالرسول ﷺ يقول : «وتفترق أمتى» وهذا يعنى أن هذه الفرقة من أمة محمد ﷺ لم يخرجوا عن أمته وإن فسقوا وانحرفوا وضلوا عن الصراط ولذلك فهم ليسوا مخلدين فى النار كالكافرين والمشركين ... أما من كفر من هذه الأمة كفرا صريحاً بواحا وخالف قواعد الدين وأركانه فهو كافر بما أنزل على محمد وخرج من الفرقة الاثنيتين والسبعين وخرج من أمة محمد . ومن أمثال هؤلاء الخارجين النصيرية [العلوية] والقرامطة والإسماعيلية والدروز والقاديانية والبهائية والبابية ومن الفرق الباطنية الكافرة المعاصرة فى أمريكا وتنتسب إلى الإسلام بهتانا وزوراً فرق تسمى الأليجية والفرهخماتية» و «جمعية أنصار الله» . ومن الخوارج اليزيدية والميمونية .

أهم أسباب الاختلاف بين المسلمين بعد النبي ﷺ :

هناك أسباب عديدة لاختلاف المسلمين بعد النبى ﷺ منها كما يرى مولانا الشيخ

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٩ جـ ٢٢ تفسير الرازى طبعة إحياء التراث العربى .
يقول فيليب حتى «وللعلماء المصريين نظريات فى أصل هذا الحديث وكيفية نشوئه . فمنهم «بالجريف» Palgrave الذى أرجع فرق النصارى الاثنتين والسبعين إلى تلامذةُ المسيح الاثنتين – والسبعين المنصوص عليهم فى العهد الجديد ، وشتتشنيدر Steinschneider فى مجلة المستشرقين الألمانية ZDMG مجلد ٤ ص ١٤٧ الذى ردِ القول بفرق اليهود الإحدى والسبعين إلى رواية العهد القديم بشأن انتخاب موسى سبعين رجلاً من بنى إسرائيل ، وجولد زهير Goldzilrer .
Le Dog me et la loi de I'slam : page 157. Revue de Izhistoire de Religions: part 26. page 129.
أن الحديث فى وضعه الأصح إنما هو الحديث الوارد للمرة الأولى فى صحيح البخارى ١ : ٨ «الإيمان بضع وستون شعبة والحياة شعبة من الإيمان» «وأنه بتوالى الأعوام أسيء فهم المقصود من «شعبة» فصيلة وحرف الحديث بحيث أصبح ما هو عليه» .
فيليب حتى هامش [مختصر كتاب الفرق بين الفرق «للرّسْعَنى»] . ص ١٥ .
والحقيقة أن هذه وجهة نظر مستشرقين غير موضوعيين فحديث «افتراق الأمة على ثلاث وسبعين له أسانيد كثيرة وطرق متعددة ، وقد رواه عن النبى ﷺ عدة من الصحابة كأنس بن مالك ، وأبى هريرة وأبى الدرداء ، وجابر ، وأبى سعيد الخدرى ، وأبى بن كعب وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وغيرهم . وكلهم متفقون على رواية الحديث .

محمد أبو زهرة (١) «العصبية العربية» مع أن الإسلام حارب العصبية فيقول تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) والرسول ﷺ يقول «ليس منا من دعا إلى عصبية» . ويقول «كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» .

وقد اختفت العصبية فى عصر النبى ﷺ بهذه البينات الواضحات واستمر اختفاؤها إلى عصر الخليفة الشهيد «عثمان بن عفان» ، ثم انبعثت فى آخر عهده قوية عنيفة ، وكان انبعاثها له أثر فى الاختلاف بين «الأمويين» و «الهاشميين أولاً ، ثم الاختلاف بين «الخوارج» من القبائل «الرَّبْعية» ، لا من القبائل «المُضَرِية» ، والنزاع بين الرَّبعيين والمُضَرِيِّين معروف فى العصر الجاهلى ، فلما جاء الإسلام أخفاه ، حتى ظهر فى نحلة الخوارج .

ومنها التنازع على الخلافة :

وقد انبعث ذلك النوع من الخلاف عقب وفاة النبى ﷺ مباشرة ، فقد قال الأنصار نحن أوينا ونصرنا فنحن أحق بالخلافة . وقال المهاجرون . نحن أسبق إلى الإسلام ، فنحن أحق . ولكن قوة إيمان «الأنصار» حسمت الخلاف ، ولم يظهر له أى أثر ، وقد اشتدت الخلافات بعد ذلك حول الخلافة . من يكون أحق بها ؟ أيكون من «قريش» جمعاء ، أم يكون من أولاد على خاصة ، أم يكون من المسلمين أجمعين : لا فرق بين قبيل وقبيل ، وبيت وبيت فالجميع أمام الله تعالى سواء ، والله يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والنبى ﷺ يقول «لا فضل لعربى على اعجمى إلا بالتقوى» .

وهكذا انقسم المسلمون إلى «خوارج» و «شيعة» وجماعات أُخر .

وأيضاً من أسباب اختلاف المسلمين ، مجاورتهم لكثيرين من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم فى الإسلام .

فقد دخل فى الإسلام يهود ونصارى ومجوس ، وكان بعضهم يفكر فى الحقائق الإسلامية على ضوء إعتقاداتهم القديمة فأثار بين المسلمين ما كان يثار فى ديانتهم من

---

(١) فى كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ فى السياسة والعقائد ص ١١ وما بعدها باختصار .

الكلام فى الجبر والاختيار ، وصفات الله تعالى . أهى شىء غير الذات أم هى والذات شىء واحد .

وهناك أيضاً من دخل الإسلام ظاهراً وأبطن الكفر وما كان دخوله الإسلام إلا ليفسد على المسلمين أمور دينهم الحنيف ، ويبث فيه الأفكار المنحرفة ويقول فى هذا المقام ابن حزم فى كتابه الفصل (١) .

«والأصل فى خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام ، أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة النظر فى أنفسهم حتى كأنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون جميع الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمت الأمور ، وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات كثيرة ، ففى كل ذلك كان يظهر الله الحق ... فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم على رضى الله عنه حتى أخرجوهم عن الإسلام .

وهذا الكلام وإن كان قد اقتصر فى المثال على التشيع كما يقوم المرحول الشيخ أبو زهرة ، كالذى كان يفعله السبئية ، فإنه أيضاً ينطبق على كثير من الطوائف الأخرى ، ففى كل فرقة كان من هؤلاء ، كابن الراوندى فى المعتزلة ، و«المشبهة» و«المجسمة» فى غيرهم .

وأيضاً من أسباب الاختلاف ورود المتشابه فى القرآن .

يقول تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) آل عمران : ٧ .

بهذه الآية ثبت ورود المتشابه فى القرآن الكريم ليختبر الله سبحانه وتعالى قوة الإيمان في المؤمنين ، وقد كان وروده سبباً فى اختلاف العلماء فى مواضع المتشابهات من

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ٢ ص ٩١ .

القرآن الكريم ، وحاول كثيرون من ذوى الأفهام تأويله ، والوصول إلى إدراك حقيقة معناه ، فاختلفوا فى التأويل اختلافاً بيّناً ، ومن العلماء من أرادوا أن يجعلوا بينها وبينهم حجاباً مستوراً ، فيما كانوا يؤولون ، بل كانوا يتوقفون ويقولون : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة) .

ومن أسباب الاختلاف التعرض لبحث كثير من المسائل المختلف فيها . وذلك نتيجة شيوع التفكير الكلامى والفلسفى بين علماء المسلمين فى إثبات العقائد والحجاج والدفاع عن العقيدة ، وقد جرهم ذلك إلى دراسة مسائل ليس فى استطاعة العقل البشرى أن يصل إلى نتائج مقررة ثابتة فيها ، كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها ، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب ، وغير ذلك من المسائل التى تختلف فيها الأنظار وتتباين المسالك ، ويتجه كُلٌ اتجاهاً يخالف الآخر .

ثانياً : كيف افترقت الأمة الإسلامية :

مات رسول الله ﷺ وقد ترك أمته الإسلامية على المحجة البيضاء تاركاً فيهم كتاب الله وسنته المطهرة ولو أن أمة القرآن فهمت ووعت ما فى القرآن من دعوة إلى الاعتصام بحبل الله جميعاً وعدم التفرق والحذر من أعدائهم وأعداء دينهم الحنيف ، ولو أنهم ابتعدوا عن الأهواء والعصبية والمطامع والمآرب ما تفرقوا أبداً إلى شيع وفرق .

ولعل أول خلاف وقع بينهم هو خلافهم فى موت رسول الله ﷺ فأنكر بعضهم موته وقالوا إنه لم يمت وإنما رفع إلى السماء كما رفع عيسى عليه السلام . وقد حسم هذا الخلاف حين تلا الصديق رضى الله عنه قول الله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) [٣٩ : ٣١] .

وقال لهم قولته المشهورة : «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد ربّ محمد فإن رب محمد حى لا يموت» .

وكان اختلاف المسلمين الثانى يدور بينهم حول موضع دفنه الشريف ﷺ . فهناك من أشار بدفنه بمكة المكرمة حيث مولده ونشأته وصباه ومبعث رسالته الشريفة وحيث قبلة المسلمين وبيت الله الحرام وقبر جده إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام . وأشار أهل المدينة بدفنه بالمدينة المنورة التى أعزت الإسلام ونصرت الرسول ﷺ . وأشارت طائفة أخرى بنقله ودفنه بالأرض المقدسة عند قبر جده إبراهيم عليه السلام . ومرّة ثانية يحسم

الصديق هذا الخلاف بمارواه عن الرسول ﷺ «إن الأنبياء يدفنون حيث يُقبضون» . فدفنوا رسول الإنسانية جمعاء فى حجرته الشريفة .

ثم كان هناك أضخم وأخطر مشكل واجه الإسلام بل ظل يواجهه فى سائر عصوره وهو مشكل الإمامة . فبعد وفاته ﷺ قال القرشيون إن الإمامة لا تكون إلا فى قريش . وقال الأنصار نحن الذين ناصرنا الرسول وأيدناه ودعوا إلى مبايعة سعد بن عبادة الأنصارى . فلما سمع الأنصار قول الرسول ﷺ من حديثه الشريف «الأئمة من قريش» سلموا الأمر للمهاجرين وبايعوا الصديق التّيمى القرشى . والصديق هو الذى قال فيه الرسول «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» وهو صاحبه فى الهجرة وهو الذى نصر الرسول والإسلام فى مواقف كثيرة ، وهو الذى أنابه عنه فى الصلاة فى مرضه الأخير .

ولم يكن «على» حاضراً هذا الاجتماع الذى تم فيه اختيار الصديق أميراً للمؤمنين وذلك لانشغاله وأهل بيته فى الإعداد لدفن رسول الله ﷺ فلما بلغه خبر البيعة تأثر بعض الوقت لأنه كان يرى بالذات أنه أوْلى بالإمارة لأنه أول من أسلم وهو صبى ، وأقرب الناس رحماً لرسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء ولجهاده المعروف فى سبيل الإسلام .

وقد قيل إن علياً سأل عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا له : احتجت قريش أنها شجرة الرسول ﷺ فقال علىّ «احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة» .

ولم يبايع الإمام علىّ أبا بكر الصديق إلا بعد وفاة السيدة فاطمة الزهراء . وقيل فى رواية أخرى أنه بايع بعد أربعين يوماً [١] ومن المحتمل أن يكون السبب فى ذلك موضوع

---

(١) ومن الروايات الشهيرة فى تخلف علىّ وبنى هاشم عن المبايعة لأبى بكر ما أورده ابن قتيبة فى كتابه «الإمامة والسياسة» وذكره الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه عن أبى بكر الصديق جـ ١ ص ٦٢ و ٦٤ : باختصار تقول الرواية أن عمر بن الخطاب ذهب فى عصابة إلى بنى هاشم بعد أن تمت البيعة لأبى بكر ، وطلب إليهم أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس ، وكان بنو هاشم فى بيت على . وقد أبوا وأبى من كان معهم أن يجيبوا دعوة عمر ، بل خرج الزبير بن العوام إلى عمر وأصحابه بالسيف . قال عمر لأصحابه : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا السيف من يده ، فانطلق فبايع . وقيل لعلى بن أبى طالب : بايع أبا بكر ، فقال : «لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليه بالقرابة من النبى وتأخذونه منا أهل البيت غصباً . ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة . فإذا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار . ونحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون» .
قال عمر : «إنك لست متروكاً حتى تبايع» .

=

«فَدَك» ذلك أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها والعباس عم رسول الله ﷺ أتيا أبا بكر بعد استخلافه يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ في أرض فَدَك وفى سهمه من خيبر فقال لهما أبو بكر : «أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة . إنما يأكل أهل محمد فى هذا المال . وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته» . فغضبت فاطمة لذلك وهجرت أبا بكر . وقد مكثت فاطمة ستة أشهر بعد وفاة أبيها . وكان علىّ يغاضب أبا بكر غضباً لفاطمة زوجه . فلما ماتت مال إلى مصالحته وصالحه .

أما الذين ينفون التخلف عن بيعة أبى بكر فيرون أن روايات هذا التخلف مختلفة

= وأجاب على فى حرارة وقوة : «احلُبْ حلباً لك شطره ، وشدّ له اليوم يردده عليك غدا ، والله يا عمر لا اقبلُ قولك ولا أبايعه» . وخشى أبو بكر أن يبلغ الحوار بينهما العنف ، فتدخل بين الرجلين وقال : «فإن لم تبايع فلا أكرهك» . وتوجه أبو عبيدة بن الجراح إلي علىّ متلطفاً فقال : «يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالاً واستطلاعاً ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك» .
هنا ثار علىّ وقال : «والله الله يا معشر المهاجرين ! لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره ومقربيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه . فوالله يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت . ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً» هذا وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بنى هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكاراً صريحاً . ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بإجماع لم يتوقعه أحد . روى الطبرى حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة رسول الله قال نعم ، قيل : فمتى بويع أبو بكر ؟ قال يوم مات رسول الله ص ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة . قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال : لا ، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل تنقذهم من الأنصار . قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال : لا تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم .
وفى رواية أن علىّ بن أبى طالب كان فى بيته إذ جاءه من أنباه أن أبا بكر قد جلس للبيعة فخرج فى قميص له ما عليه إزار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلي ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه .
وتجرى بعض الروايات فى أمر على وبيعته مجرى وسطاً . من ذلك ما قيل من أن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء فقال : له ابن عمة رسول الله وحواريه ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه . ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير علياً . دعا به فجاء فقال له : ابن عم رسول الله وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه» .

وموضوعة ، وضعت فى عهد العباسيين لأهداف سياسية ، أما معظمهم فيرجحون أنها وضعت قبل عهد العباسيين ، ومنذ اختلف بنو هاشم وبنو أمية على الأمر إبان حروب الإمام على ومعاوية بن أبى سفيان . وهؤلاء يقولون «إن امتداد الفتح إلى العراق وفارس أدى بجماعة من الفرس لابتداع هذه الأقاويل . وقد استَجَمَّتْ هذه الجماعة من الفرس بعد انتصار الأمويين وأقامت فى استجمامها تتحين الفرص حتى تهيأت لأبى مسلم الخراسانى فكان من أمره وأمر العباسيين ما كان» ... (١) .

وإذا كان المسلمون قد افترقوا عند موت النبى وعند دفنه وفى مسألة الإمامة وفى مسألة ميراث الأنبياء و «فدك» ، فإنهم اختلفوا بعد ذلك فى قتال مانعى الزكاة في عهد أبى بكر ثم أجمعوا أمرهم مع أبى بكر الصديق على ضرورة قتالهم حين قال قولته المشهورة :

«والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه» . وحين قال عمر ابن الخطاب : «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله . فرد عليه الصديق قائلاً : «والله لأقتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال» ، وقد قال : «إلا بحقها»

ويقال إن عمر قال : «فو الله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق» .

واختلف المسلمون بعد ذلك فى شأن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحدث فى عهده فتن لها أسباب كثيرة يوضحها الإمام الشيخ محمد أبو زهرة منها (٢) .

١ - سماحه لكبار المهاجرين والمجاهدين الأولين بالذهاب إلى الأمصار فإن أولئك انسابوا فى الأقاليم الإسلامية بعد أن كان «عمر» رضى الله عنه قد منعهم من الخروج من المدينة إلا لولاية يتولونها أو لقيادة جيش يقودونه ، وكان منعه لهم سببه أنه يريد أن ينتفع بهم ، وخشية أن يفتن الناس بهم ، وأن ينقدوا الحكام بما لهم من سابقة ، فأبقاهم عنده لينتفع هو بنقدهم .

---

(١) الصديق أبو بكر لهيكل ص ٦٧ .
(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٧ ، ٣٠ باختصار .

فلما أذن لهم عثمان رضى الله عنه كان منهم نقد للخليفة ، ونقد للحكام وانظر إلى ما كان يقوله «أبو ذر الغفارى» ، فإنه يروى أنه كان يقول بالشام : «والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها ــ والله ما هى من كتاب الله ، ولا سُنّة نبيه ... والله إنى لأرى حقاً يطفأ ، وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً ، وأثرة بغير تقى ومالاً مستأثراً به» .

ولذا قال «حبيب الفهرى» لمعاوية : إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله إن كان لك فيه حاجة ، فشكا «معاوية» «أبا ذر» إلى عثمان فأحضره إلى المدينة ، ثم نفاه إلى «الربذة» .

وإذا كان «أبو ذر» قد تورك فى الشام ، فلا شك أن غيره أثر أثره فى غير الشام ، وإن فى السامعين أقواماً حديثى عهد بكفر ، ولم تشرب قلوبهم حب الإسلام ، وفيهم من يدعون إلى الفتنة ، وفى غيرهم سماعون لهم .

٢ – ومن أسباب الفتنة فى عهد عثمان اشتهار سيدنا عثمان رضى الله عنه بحبه لقرابته – وليس فى ذلك إثم ولا لوم – ولكنه ولاّهُم وقربهم وكان يستشيرهم فى كثير من شئون الدولة ، وفيهم من ليس أهلاً للثقة ، وكان بعض أقاربه يحرضون سيدنا عثمان على عدم الالتفات إلى لوم اللائمين ، ونقد الناقدين . يروى فى ذلك أن عثمان لما أحاط به الذين تألبوا عليه ، وجاءوا إليه من «مصر» و «الكوفة» استعان بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى صرف المصريين ، فصرفهم ، وأشار عليه على بأن يكلم الناس بكلام يسمعونه ، يشهد الله على ما فى قلبه من النزوع والإنابة ، فتكلم بكلام ، وفَرّقَ له الناس ، وبكى كثيرون منهم ، وارتدت القلوب الشاردة ، ولكن «مروان بن الحكم» جاء إليه ، وقال له : بأبى أنت وأمى ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها ، وأعانك عليها ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين [١] ، وخلف السيل الزبى [٢] ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها ، أجمل من توبة تخوف عليها ، وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس

---

(١) الطُبى : بضم الطاء وكسرها حلمة الثدى ، وبلغ الحزام الطبيين مثل يضرب للشدة .

(٢) الزبى : المرتفعات من الأرض .

فقال عثمان فاخرج إليهم ، فكلمهم فإنى لأستحى أن أكلمهم ، فخرج مروان بن الحكم إلى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : ما شأنكم فقد اجتمعتم كأنكم اجتمعتم لنهب ، شاهت الوجوه ، كل إنسان أخذ بأذن صاحبه ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا . أخرجوا عنها . والله لئن رميتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ... ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا » (١) .

ولقد كان من نتائج هذا توليته ولاة من أقاربه ، وبعض هؤلاء لم يكونوا من ذوى السبق فى الإسلام وبعضهم كان النبى ﷺ قد أباح دمه ، إذ ارتد بعد إيمان كعبد الله بن سعد بن أبى السرح» وقد ولاه بعد «عمرو بن العاص» وقد أخذ هذا يؤلب الناس على عثمان بسبب ذلك حتى كان يقول : «والله إن كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه» . وانتشرت بتولية «عبد الله» قالة السوء عنه ، إذ أخذ الناس يتحدثون عنه ، وهو الرجل الذى امن ثم كفر ، ثم كذب على رسول الله ﷺ .

ولم يكن عبد الله بن أبى السرح كيساً رحيماً ، بل كان غليظاً قاسياً وجريئاً فى مخالفة عثمان . ولا شك أن فعل مثل هذا الوالى من شأنه أن يثير النقمة على أمير المؤمنين سيدنا عثمان رضى الله عنه وقد كان ، فإن المصريين كانوا أول الناس انتقاضاً وذهاباً إلى المدينة ، لمحاصرة سيدنا عثمان رضى الله عنه . فإن فعل ابن أبى السرح هذا يجعل الناس ييئسون من إقامة العدل . وفى اليأس من العدل فتح باب الشر والفتن ، والقتل والقتال ، إذ الشعور بالعدل هو الحاجز الحصين دون الفتن .

ومن أسباب الخلاف أيضاً تساهل ولين سيدنا عثمان رضى الله عنه ، فتساهله مع عماله – ولم يكن بعضهم عدلاً – جعل الناس ييئسون من عدله ، فلم يكن كعمر حازماً مع ولاته ، وخصوصاً فى معاملتهم للرعية ، وكان شعار عمر : خير لى أن أعزل كل يوم والياً ، من أن أبقى والياً ظالماً ساعة من زمان .

ولم يكن عثمان رضى الله عنه حازماً مع الذين ثاروا عليه وهاجموا داره ، وحصبوه

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ نقلاً عن الطبرى جـ ٥ ص ١١٢ .

وهو على المنبر ، ولو أنه أخذ أولئك العصاة بالشدة عندما تحركت رؤوس بالانتفاض والفتنة ، حتى يعلموا أن الفتنة ليست وسيلة للعلاج ، ثم بعد ذلك يرد الحق إلى نصابه . ويعزل الولاة الظالمين – لأدى ذلك إلى نجاته ، وإلى استتباب أمن المسلمين وحسم الخلاف . ولقد كان عظماء الصحابة على استعداد لنصرته ، وكلما هموا بحمل السلاح ثبطهم ، وقد منعهم سيدنا عثمان رضى الله عنه إيثاراً للعافية . ومنعاً للقتل والقتال بين المسلمين . فكان هو رضى الله عنه أول فداء . وكان قتله ابتداء بلاء للمسلمين ، وفتح باب فتنة أخذت تموج كموج البحر .

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين وجود طوائف من الناقمين على الإسلام الذين يكيدون لأهله ، وقد دخلوا الإسلام ظاهراً وأضمروا الكفر باطناً ، فأخذوا يشيعون السوء عن ذى النورين عثمان ، ويذكرون على بن أبى طالب رضى الله عنه بالخير . وينشرون روح النقمة فى البلاد ويتخذون مما يفعله بعض الولاة ذريعة لدعايتهم ، وكان الطاغوت الأكبر لهؤلاء «عبد الله بن سبأ» ، وقد قال فيه ابن جرير الطبرى : كان «عبد الله بن سبأ» يهودياً من أهل صنعاء ، أمه أمة سوداء فأسلم زمان «عثمان» ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالهم ، فبدأ ببلاد «الحجاز» ثم «البصرة» ثم «الشام» فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى «مصر» فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن «عيسى» يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع . وقد قال الله تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) . ثم محمد أحق بالرجعة من عيسى .

ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبى ولكل نبي وصى ، وكان على وصى محمد . ثم قال : خاتم النبيين محمد وعلىّ خاتم الأوصياء .

ثم قال بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله ﷺ ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وأبدوه بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لتستميلوا الناس ـ فبث دعاته ، وكان ما كان ممن استفسد فى الأمصار وكاتبوه ، ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتباً يضعونها فى عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ـ وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون» .

ومن ذلك يتضح لنا خطر عبد الله بن وهب بن سبأ على الإسلام فهو أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب بالإمامة بالنص ، وهو أول من أحدث القول برجعة على رضى الله عنه إلى الدنيا بعد موته وبرجعة رسول الله ﷺ أيضاً .

وهو أول من أحدث القول بأن علياً رضى الله عنه لم يقتل ، وأنه لا يزال حياً ، وأنه يسكن السحاب وأن الرعد صوته ، وأن البرق سوطه وأن فيه جزءاً إلهياً وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلاً كما ملئت جَوْراً ، وأثر اليهودية واضح فى هذ المسائل وهكذا استطاع عبد الله بن سبأ اليهودى أن يبث سمومه وأفكاره الخطيرة فى الفكر الإسلامى [١] فأما الرافضة فإن السبئية منهم من قال للإمام على أنت الإله فأحرق منهم من أحرق ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن . وقد افترقت الروافض بعد على رضى الله عنه إلى أربعة فرق زيدية [٢] ، وكيسانية [٣] ، وغلاة [٤] والغلاة خارجون عن الإسلام ، وأما الزيدية أو الإمامية [٥]

---

(١) كان لتعاليم ابن سبأ أثر كبير فى أفكار الغلاة من الرافضة والشيعة . فالإسماعيلية مثلاً يقولون بأن الإمامة محصورة فى ولد اسماعيل بن جعفر الصادق .
وبعض الإمامية يذهبون إلي القول بغيبة الإمام ورجعته إلى الدنيا بعد الموت ، وهو ما يشير إليه قول كثير عزة :

وسبط لا يذوق الموت حتي　　يقود الخيلَ يقدُمها اللواء
تغيب لا يُرى فيهم زماناً　　برضوى عنده عسل وماء

(٢) الزيدية من الرافضة معظمها ثلاث فرق وهى : الجارودية والسليمانية - وقد يقال لها الجريرية والابترية وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بإمامة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فى أيام خروجه فى زمان هشام بن عبد الملك . وقد ظهرت الزيدية فى مبدأ القرن الثانى الهجرى . وكان الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك يخشى زيداً على سلطانه بْعد أن اتهمه أمير العراق بأنه يهدف إلى الخلافة .
ومذهب الزيدية أقرب مذاهب الشيعة إلى الجماعة الإسلامية لأنهم لم يغلوا فى عقائدهم ولم يكفر الأكثرون منهم أحداً من الصحابة ولم ترفع الأئمة إلى درجة النبوة أو الألوهية ومن أهم مبادئ الزيدية : الإمامة فى أولاد فاطمة دون غيرهم ويشترط أن يكون فاطمياً ورعاً تقياً سخياً شجاعاً يخرج داعيا الناس لنفسه . وتجب طاعته . ولا يقول بالتقية . والإمام عندهم منصوص عليه بالوصف لا بالاسم ، والإمامة عند الزيدية من المصالح العامة التى تفوض إلى المسلمين لاختيار من يرونه صالحاً لها . كما يجوز خروج إمامين فى قطرين مختلفين دون قطر واحد . كما يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل فلو اختار أهل الحل والعقد إماماً لم يستوف الشروط وبايعوه صحت بيعته . وبنى على صحة هذا بيعة أبى بكر وعمر . وعثمان وإن كان علياً أحق وأوْلى منهم . ولهذا لا يمنع أن يكون المفضول إماماً والأفضل «قائم» يرجع إليه فى الأحكام ويفتي فى القضايا ، لكن لما سمعت شيعة الكوفة منه ذلك رفضوا معاونته لما أعلن الخروج على بنى أمية فَسُمُّوا بالرافضة . ولم يجد زيد حوله عند الالتحام غير قلة =

فمعدودون فى فرق الأمة .

وهكذا أخذت أفكار ابن سبأ المسمومة تنهش فى جسم الأمة الإسلامية وتعمل على

= قليلة فمات ثم صلب سنة ١٢١ هـ . وكان يقول بتخليد مرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب فى النار يتب فى النار وذلك أثر تلقاه عن واصل بن عطاء وهذا من أسباب خروج الشيعة عليه أيضاً .

(٣) الكيسانية أتباع كيسان مولى على بن أبى طالب وهم فرق كثيرة ترجع عند التحصيل إلى فرقتين : إحداهما تزعم أن محمد بن الحنفية حى لم يمت ، وهم على انتظاره ، ويزعمون أنه المهدى المنتظر ، والفرقة الثانية مُقرون بإمامته وبموته وينقلون الإمامة بعده إلى غيره .

(٤) فمن الغلاة من زعموا أن روح الله دارت فى الأنبياء حتى صارت فى (بيان بن إسماعيل التميمى) وأصحاب هذا الرأى يسمون (البيانية) ويزعمون أن الإمامة صارت إلى (بيان) بعد (ابن الحنفية) بوصية منه فيقولون بتناسخ روح الله تعالى دون أرواح العباد ، وقد صلب خالد بن عبد الله القسرى ، والى العراق (بياناً) هذا . ومنهم (الجناحية) أتباع (عبد الله بن معاوية ذى الجناحين) كانوا يعتقدون أن روح الله دارت فى الأنبياء كما كانت فى على وأولاده وزعموا أن كل ما فى القرآن الكريم من تحريم الميتة والخمر ولحم الخنزير كناية عن قوم من أعداء على . ومنهم أيضاً (المفوضة) ينسب إليهم القول بأن الله خلق محمداً عليه السلام وفوض إليه خلق العالم وتدبيره وقال بعضهم بل كان التفويض إلى «علىّ» كرم الله وجهه .

وغلاة الشيعة هم الذين قالوا بإلهية الأئمة وأباحوا محرمات الشريعة كالبيانية ، والجناحية ، والمفوضة وفرق أخرى عديدة منها المغيرية ، والمنصورية ، والخطابية والحلولية – فما هم من فرق الإسلام .

(٥) الإمامية : هم القائلون بأن إمامة على ثابتة بالنص عليه بالذات من النبى نصاً ظاهراً من غير تعريض بالوصف بل إشارة بالعين . وسموا إمامية لتركيز آرائهم حول الإمامية . وهم يقولون إن النبي ﷺ نص على تعيين علىّ لأنه ليس في الدين أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقة النبى للدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، لأنه بعث لتقرير الوفاق ورفع الخلاف فلا يجوز أن يفارق ويتركهم هملاً ولهذا يستدلون على تعيين علىّ بن أبى طالب بقوله ص «من كنت مولاه فعلي مولاه» ومثل «أفضلكم على» وغير ذلك مما يدعون صدقه ودلالته ويشك فيه بعض علماء الحديث الشريف .

فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها باختيار المسلمين . ولكنها ركن الدين وقاعدة الإسلام فلا يجوز للرسول إغفالها وإنما يجب عليه أن يعين إماماً للمسلمين يكون معصوماً من الصغائر والكبائر .

والاعتراف بالإمام جزء من حقيقة الإيمان وبدونه يكون الشخص كافراً .

ولم يقتصر الإمامية على القول باستحقاق على الخلافة دون سائر الصحابة بل حكموا على من تولى الخلافة غيره ومن بايعوه بمخالفة النصوص ووصفوهم بالكفر وحكموا ببطلان خلافتهم لأنهم مغتصبون ظالمون وقد جعل «الإمامية» سلسلة الخلافة بعد على فى أولاد فاطمة وذرية الحسين .

ومن مبادىء الإمامية القول باختفاء الأئمة ورجعتهم . ومن مبادئهم أيضاً التقية : ومعناها المداراة والمصانعة ، والمقصود منها عند الشيعة النظام السرى الذى يكتمونه عن الناس ويسيرون على تعاليمه فى الدعوة إلى إمامهم المنتظر وإظهار الطاعة لمن بيده الأمر حتى يأنسوا بقوتهم فيحملوا السلاح =

تفرقتها وبذر الفرقة بينها . ونجحت فى صنع الخلاف وبذر معركة أصحاب الجمل ، وصنعت فى صفين معركة ، وكانت بذور سمومها واضحة فى مسألة الحكمين . وهذا هو الخلاف الخطير الحقيقى فى جسم الإسلام الذى أدى إلى انقسام المسلمين إلى «شيعة» على وهم الذين قالوا بخلافته نصاً وتعييناً و «خوارج» وهم الذين خرجوا على علىّ لرضائه بالتحكيم . فأول فرق الإسلام هم الشيعة والخوارج ثم اختلفت الخوارج فصارت نحواً من عشرين فرقة كل واحدة تكفر سائرها .

وبين الشيعة والخوارج ظهرت فرقة جديدة هى المرجئة (١) وسبب نشأة هذه الطائفة أنه لما انقسم أتباع سيدنا على بن أبى طالب ، بسبب رضائه عن التحكيم ، إلى خوارج وشيعة وكانت الخوارج يكفرون علياً وعثمان والقائلين بالتحكيم والشيعة منهم من يكفر الصديق وعمر وعثمان ، وكلاهما يكفر الأمويين . وكان ذلك سبباً فى أن جماعة من الصحابة كرهوا هذا النزاع وسلكوا طريقاً وسطاً حتى تنجلى الفتنة ولهذا امتنعوا عن الخوض فى شأن المتنازعين وأرجئوا الحكم فى شأنهم إلى الله سبحانه وتعالى . فلهذا سموا بالمرجئة

= فى وجه الدولة القائمة .

والإمامية من فرق المسلمين لأنهم وإن خالفوا جماعة المسلمين فى بعض المسائل إلا أن مخالفتهم لا تخرجهم أبداً عن ملة الإسلام لأنهم يعترفون بالعقائد الإسلامية ومبادئ الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة .

وقد اتفق الإمامية على أن الإمام الأول عندهم على بن أبى طالب ثم ابنه الحسن ثم أخوه الحسين ثم ابنه على زين العابدين وليس للحسين عقب إلا منه والخامس محمد الباقر بن على زين العابدين ثم ابنه الإمام جعفر الصادق وبعد جعفر هذا بدأ انقسام الإمامية لاختلافهم فى تسلسل الأئمة إلى فرق متعددة .

فالإمامية خمس عشرة فرقة : المحمدية ، والباقرية ، والناووسية ، والشُّميطية ، والعمارية ، والإسماعيلية والمباركية ، والموسوية ، والقطعية ، والأثنى عشرية ، والهشامية من أتباع هشام بن الحكم أو هشام بن سالم الجواليقى ، والزرارية من أتباع زرارة بن أعين ، واليونسية ، من أتباع يونس القُمّى ، والشيطانية - من أتباع شيطان الطاق . والكاملية - من أتباع أبى كامل وهو أفحصهم قولاً فى علىّ وفى سائر الصحابة رضوان الله عليهم .

(١) كلمة المرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخر ، سمُّوا المرجئة لأنهم يرجئون أمر المختلفين الذين سفكوا الدماء إلى يوم القيامة فلا يقضون بحكم لا على هؤلاء ولا على هؤلاء ، وبعضهم يشتق اسمهم من أرجاء بمعنى بعث الرجاء لأنهم كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . والمرجئة خمس فرق : يونسية ، وغسانية ، وثوبانية ، وتومنية ، ومريسية . واتفق فى هذا التقسيم البغدادى والمقريزى (جـ ٢ : ٣٤٩ : ٣٥٠) .

ويقال إن أصحاب هذه الفكرة هم :

سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة وعمران بن الحصين وحسان بن ثابت ، وأبو بكرة ، أما ابن عساكر فيقول عن المرجئة «إنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول كان علىّ أولى بالحق وأصحابه كلهم ثقة ، وعندنا مصدق . فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما إلي الله حتى يكون الله هوالذى يحكم بينهما وهناك رأى آخر يقول إن أول من قال بالارجاء (هو الحسن بن محمد بن الحنفية) ولكنه لم يؤخر العمل عن الإيمان ، بل قال إن أداء الطاعات وترك المعاصى ليسا من الإيمان فلا يزول بزوالها [١] .

وقيل : أول من وضع الإرجاء بالبصرة (حسان بن بلال المزنى) وقيل : (أبو سلت السمان المتوفى ١٥٢ هـ) [٢] .

ونلاحظ أن المرجئة يبالغون فى إثبات الوعد [٣] ويرجون المغفرة لأهل المعاصى . وهم يحكمون على مرتكب الكبيرة بأن أمره مفوض لربه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، ويقولون بأن الإيمان تصديق ومعرفة ولهذا فإنهم لا يعيرون للعمل أدنى اهتمام . وقد تغالى بعضهم فزعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأصنام أو لزم اليهودية أو النصرانية فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن . ولذا قال زيد بن على بن الحسن : (أبرأ من المرجئة الذى أطمعوا الفساق فى عفو الله) .

---

(١) ويظاهر من ذلك أن الحسن بن محمد بن الحنفية لا يذهب مذهب المرجئة من كل وجه .

(٢) ومن المرجئة طائفة الثوبانية أتباع (ثوبان) المرجئ الخارجى الذى يقول إن الإيمان هو المعرفة والإقرار ثم يقول إن الإيمان فعل ما يجب فى العقل فعله وهو هنا يقول بمذهب المعتزلة .

ومن المرجئة طائفة الضرارية أتباع (ضرار بن عمرو) الذى مع قوله بالارجاء يقول إن الله تعالى يُرى فى الآخرة بحاسة سادسة .

(٣) عكس المعتزلة المبالغين فى إثبات الوعيد .

وهكذا نلاحظ أن المرجئة كانت فى أول مبدئها رأياً سياسياً له موقفه فى الخلاف الذى نشأ حول الخلافة ، ثم تطورت المرجئة إلى فرقة كلامية تبحث فى مسائل الإيمان والكفر ورأت أن الأعمال الظاهرة ليست جزءاً من الإيمان (١) .

وقالت المرجئة بأن لله وعداً ووعيداً وأن وعده لا يتخلف لأن الثواب الذى وعد الله به فضل منه ، ولابد من أن يفى الله بوعده ، على حين أن وعيد الله قد يتخلف ، لأنه العقاب الذى توعد الله به عدل ، ولله أن يتصرف فى عدله كما يشاء (٢) .

وهكذا تفرق المسلمون طوائف واستطاع بعض الحاقدين على الإسلام وأعدائه أن ينجحوا فى تفريق المسلمين وبخاصة ذلك اليهودى الخبيث عبد الله بن سبأ .

وإذا كان عبد الله بن سبأ اليهودى له دوره الخطير فى اختلاف المسلمين فإن رجلاً آخر نصرانيا من أهل العراق يقال له سوسن كان له هو الآخر دور فى اختلاف المسلمين فقد أظهر سوسن الإسلام وصحب معبد بن عبد الله الجهنى البصرى ، وعلمه القول بالقدر (٣) ، فكان معبد هذا أول رجل قال بالقدر فى الملة المحمدية (٤) ، وقدم مدينة الرسول ﷺ فأفسد عقول بعض الناس ، فاشتغل أهل زمانه بتحذير الناس منه ، وقد روى أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية فى المسجد يقول : إن معبداً يقول بقول النصارى ، وما زال كذلك حتى أخذه عبد الملك بن مروان فى سنة ثمانين فقتله وصلبه بدمشق (٥) .

---

(١) وهذا مخالف لما قالت به الخوارج من أن الإيمان هو معرفة الله ورسله وأداء الفرائض والامتناع عن الكبائر .

(٢) وهذا مخالف لما قالت به المعتزلة الذين يبالغون فى إثبات الوعيد كما قلنا .

(٣) افترقت القدرية إلى عشرين فرقة : واصلية ، وعمرية ، والهذيلية ، والنظامية ، والأسوارية ، والمعمرية ، والإسكافية ، والجعفرية ، والبشرية ، والمُرادية والهشامية ، والتمامية ، الجاحظية ، وأصحاب صالح ، والمونسية ، والكعبية ، والجبائية ، والشحّامية ، والبهشمية أو الهشيمية (المنسوبة إلى أبى هاشم بن الجبائى) والخياطية ، والحائطية ، والحمارية . فهذه ثنتان وعشرون فرقة ، ثنتان منهما ليستا من فرق الإسلام وهما الحائطية والحمارية .

(٤) يروى أن معبد بن خالد الجهنى سمع من يتعلل في المعصية بالقدر ، فقال فى الرد عليه : «لا قدر والأمر أنف» أى أن الأمور يستأنف العلم بها ، وتستأنف بالتالى إرادتها ، وكأنه بذلك نفى الإرادة الأزلية ، ونفى العلم الأزلي القديم ، وذلك ليخرج فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخالق سبحانه وتعالى . فالقدرية قالوا بحرية الإرادة وقدرة الإنسان على أعماله . وقد ردوا هذا بالشام والعراق والقدرية ضد الجبرية وقد مَهّدُوا للمعتزلة وتلاشوا فيهم ، بل إن المعتزلة يسموا أحياناً بالقدرية .

(٥) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٨٩

وقد أخذ عن معبد الجهنى غَيْلان بن مروان (أو ابن مسلم) الدمشقى فقال بالقدر خيره وشره : إنه من العبد ، وقال فى الإمامة : «إنها تصلح فى غير قريش ، وإن كل من كان قائماً بالكتاب والسنة كان مستحقاً لها ، وإنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة» .

وغيلان الدمشقى ظل داعياً للقدرية بالشام ، وقد ناقشه عمر بن عبد العزيز ، وكتب هو إليه كتباً يدعوه فيها إلى التمسك بالعدل ، ومن هذه الكتب كتاب أرسله إلى عمر جاء فيه

«أبصرت يا عمر وما كدت ، ونظرت وما كدت ، إعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً ، ورسماً عافياً ، فيا ميت بين الأموات ، لا ترى أثراً فتتبع . ولا تسمع صوتاً فتنتفع ، طُفِئ على السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل وربما نجت الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام . فانظر أى الإمامين أنت فإنه تعالى يقول : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى هو ومن اتبعه شريكان . وأما الآخر ، فقال تعالى : (وجلعناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون) ولن تجد داعياً يقول : «تعاولوا إلى النار ، إذن لا يتبعه أحد ، ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصى الله سبحانه وتعالى فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع ، أو يصنع ما يعيب ، أو يعذب على ما قضى ، أو قضى ، أو يقضى على ما يعذب عليه . أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة ، أو يعذبهم على الطاعة ، أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم ، وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب ، كفى ببيان هذا بياناً ، وبالعمى عنه عمى» [1] . وروى أن عمر بن عبد العزيز دعاه وناقشه فى نحلته ، وقطع حجته . فقال غيلان له : يا أمير المؤمنين . لقد جئتك ضالا فهديتنى ، وأعمى فأبصرتنى ، وجاهلاً فعلمتنى ، والله لا أتكلم فى شىء من هذا الأمر ، ولكن يظهر أنه عاد إلى دعوته بعد موت أمير المؤمنين ويقال إن عمر بن عبد العزيز قال لغيلان أعنى على ما أنا فيه ، فقال له غيلان ولّنى بيع الخزائن ورد المظالم فولاّه ، فكان يبيعها وينادى عليها قائلاً : «تعالوْا إلى متاع الخونة ، تعالوا إلى متاع الظلمة ، تعالوْا إلى متاع من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بغير سنته وسيرته»[2] .

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٤٤ ، تحقيق محمد جواد مشكور طبعة دار الندى بدمشق ١٩٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ .

وبعد موت عمر بن عبد العزيز عاد غيلان إلى دعوته حتى جاء عهد هشام بن عبد الملك وأحس هشام بخطر هذه الأفكار فوجدنا واليه بخراسان يقتل الجعد بن درهم لقوله إن القرآن مخلوق ، وتتبع هشام أفكار غيلان ، ولكنه يريد أن يقتله بحجة وبرهان ولهذا دعاه إلي مناقشة فقيه الشام الإمام الأوزاعي ، فناقشه حتى قطعه كما جاء في العقد الفريد وهذه هي المناقشة كما ذكرها صاحب «محاسن المساعي في مناقب أبي عمر الأوزاعي» .

«كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدري [يقصد غيلان] ، فبعث هشام إليه فقال له : قد كثر كلام الناس فيك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ادع من شئت فيجادلني ، فإن أدركت على بذلك فقد أمكنتك من علاوتي [أي رقبتي ونفسي] ، فقال هشام قد أنصفت

فبعث إلى الأوزاعي ، فلما حضر قال له هشام : يا أبا عمر ناظر لنا هذا القدري .

فقال الأوزاعي مخاطباً غيلان اختر : إن شئت ثلاث كلمات وإن شئت أربع كلمات ، وإن شئت واحدة .

فقال القدري (غيلان) : بل ثلاث كلمات .

فقال الأوزاعي : أخبرني عن الله عز وجل هل قضى على ما نهى ؟

فقال القدري غيلان : ليس عندي في هذا شيء .

فقال الأوزاعي : هذه واحدة من ثم قال : أخبرني عن الله عز وجل أحال دون ما أمر

فقال القدري : هذه أشد من الأولى ، ما عندي في هذا شيء .

فقال الأوزاعي : هذه اثنتان يا أمير المؤمنين ، ثم قال أخبرني عن الله عز وجل : هل أعان على ما حرم ؟

فقال القدري غيلان : هذه أشد من الأولى والثانية ، ما عندي في هذا شيء .

فقال الأوزاعي : يا أمير المؤمنين هذه ثلاث كلمات . فأمر هشام فضربت عنقه .

ثم قال هشام للأوزاعي : فسر لنا هذه الكلمات الثلاث ما هي ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أما تعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قضى على ما نهى ، نهى آدم عن الأكل من الشجرة ثم قضى عليه بأكلها ، فأكلها يا أمير المؤمنين .

أما تعلم أن الله حال دون ما أمر ؟ أمَر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود .

أما تعلم يا أمير المؤمنين ان الله تعالى أعان على ما حرم حرّم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ثم أعان عليها بالاضطرار ...

فقال هشام أخبرني عن الواحدة ما كنت تقول له ؟ قال كنت أقول له : أخبرني عن الله عز وجل حيث خلقك ، خلقك كما شاء ، أو كما شئت ؟ فإنه يقول : كما شاء.. فأقول له : أخبرني عن الله عز وجل ، أيتوفاك ، إذا شئت ، أو إذا شاء ، فإنه يقول إذا شاء ، فأقول له أخبرني عن الله عز وجل ، إذا توفاك أين تصير ، أحيث شئت أم حيث شاء ، فإنه كان يقول حيث شاء يا أمير المؤمنين ، من لم يمكنه أن يحسن خلقه ولا يزيد في رزقه ، ولا يؤخر أجله ، ولا يصير نفسه حيث شاء . فأى شيء في يده من المشيئة يا أمير المؤمنين ، إن القدرية ما رضوا بقول الله تعالى ، ولا بقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا بقول أهل الجنة ولا بقول أهل النار ، ولا بقول الملائكة ، ولا بقول أخيهم إبليس . فأما قول الله تعالى : (فاجتباه ربه ، فجعله من الصالحين) .

وأما قول الملائكة فهو (لا علم لنا إلا ما علمتنا)

وأما قول الأنبياء فقال شعيب عليه السلام (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

وقال إبراهيم عليه السلام : (لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين) .

وقال نوح عليه السلام : (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم) .

وأما قول أهل الجنة ، فإنهم قالوا : (الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

وأما قول أهل النار فهو (لو هدانا الله لهديناكم) .

وأما قول إبليس فهو (رب بما أغويتنى) .

وإننى أتفق مع مولانا الشيخ أبو زهرة فى قوله «وإن رواية هذه المناظرة إذا صحت (ولا مانع عندنا من قبولها) ليست مناظرة تساوى الطرفان فيها ، بل كان أحدهما حراً طليقاً فى إلقاء الأسئلة» والآخر ليس إلا أن يجيب من غير استفساره ، فإما الإجابة وإما السيف ، ويظهر من سياق القول أن الحكم بالإعدام ، سبقها ، فكانت تبريراً للإعدام أمام الناس ، ولم تكن سببه وباعثه ، ومثله كمثل من يحكم ثم يسمع الشهادة لأجل تنفيذ الحكم . لا لأجل إصدار الحكم . ثم إن الأسئلة كلها تتجه نحو غاية واحدة تبلغ من الإبهام حدّ الإلغاز ، حتى إن هشاماً لم يفهم السؤال فى الأصل ، ولو كان يريد الحق لاستفسر عن المعنى قبل أن يقتل ، فكانت أشبه بالأحاجى منها بالأسئلة ، ولم تكن إذن مناقشة . بل كانت تعلة تتخذ ذريعة للقتل الذى تقرر قبلها .

ومهما يكن الأمر فى هذه المناقشة ، فإنها بلا ريب تدل على علم الأوزاعى الدقيق بالقرآن الكريم ، وعلى أنه كان على استعداد لهذه المناقشة قبل وقوعها ، وأنه أخذ الأهبة ، وقد ساق فيها آيات قرآنية كريمة تدل بظاهرها على ما ينافى القدرية» [1] .

وعلى العكس من القدرية نجد طائفة الجبرية وكان جهم بن صفوان «ت ٧٤٥م» أول دعاة الجبرية ، فذهب إلى أن أعمال الإنسان يخلقها الله . وكان يقول إن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وإن الله قدّر عليه أعمالاً لابد أن تصدر منه ، فالله يخلق فيه الأفعال كما يخلق فى الجماد وتنسب هذ الأفعال إلى الإنسان مجازاً كما تنسب إلى الجمادات . والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، والله قدّر لفلان فعل كذا وقدر له أن يثاب ، وقدر على انسان آخر فعل المعصية وقدر أن يعاقب فالمجبرة أتباع جهم بن صفوان [2] يغالون فى نفى الاستطاعة عن الإنسان ويجعلونه كالريشة فى مهب الريح أو كأغصان الشجرة بينما المعتزلة يغالون فى إثبات الكسب للإنسان ومذهب أهل السنة وسط بين المذهبين .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة جـ ١ ص ١٢٩ .

(٢) جهم بن صفوان الترمذى من أهل خراسان من الموالى وأقام بالكوفة وكان خطيباً مفوهاً فصيحاً . وقد قتل فى سنة ١٣١ فى آخر الدولة الأموية .

وقال جهم بن صفوان بنفى صفات الله ذلك أنه وردت فى القرآن آيات كثيرة تدل على أن لله صفات من سمع وبصر وكلام . فنفى جهم أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال إن ما ورد فى القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك ، وقال لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى التشبيه ، وقال إن القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم إلا على سبيل التأويل ، وإنما خلقه الله ، وأنكر أن الله يُرَى يوم القيامة وقال «إن الجنة والنار يفنيان بعد دخول أهلهما فيها ، وبعد تلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النار بجحيمها ، إذ لا يتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا يتصور حركات لا تتناهى أولاً (١) .

ومعنى ذلك كله أن جهم بن صفوان كان ينفى الصفات الإلهية كلها وينفى رؤية الله ويزعم أن الجنة والنار تفنيان وتنقطع حركات أهلهما محتجاً بأن عدم فنائهما يتعارض مع معنى قوله تعالى (وأحصى كل شىءٍ عدداً) .

وذلك مردود عليه .

فالفخر الرازى قال : «إن الله يعلم الشىء على ما هو عليه وكما هو فى نفسه فلما لم يكن لأجزاء غير المتناهى أجزاء متناهية امتنع أن يعلم الله كونها متناهية ، يريد أن العلم بها على أنها غير متناهية هو العلم اللائق بالله تعالى ووافقه ابن حزم فى ذلك وزاد عليه أن من علم الشىء على خلاف ما هو عليه فهو جاهل به مخطىء فى اعتقاده ظان للباطل ، وعلم الله تعالى هو اليقين الحق .

وقد قال جهم بن صفوان إن من عرف الله ولم ينطق بكلمة التوحيد لا يكفر لأن العلم لا يزول بالصمت ولا بالجحود (٢) ، أى أنه يتفق مع المرجئة بأن الإيمان محله القلب . ومن قبل وجدناه نفى مع المعتزلة عن الله كل وصف يجوز إطلاقه على غيره ، كالوجود والحياة

---

(١) فجر الإسلام جـ ١ ص ٣٤٣ أحمد أمين .

(٢) وهذا مردود بأن الإيمان هو التصديق بالقلب بشرط الإقرار باللسان إذ الإقرار شطر منه . لقول رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» .

والعلم ، وجوز وصفه فقط بما يختص به من صفات الأفعال كالخلق ، وذهب إلى أن كلام الله حادث .

ولقد ذابت القدرية والجهمية وانصهرتا فى غيرهما من المذاهب الكلامية الإسلامية ولم يصبح لهما وجوداً خاصاً مستقلاً .

هكذا بينا كيف اختلفت الأمة الإسلامية إلى فرق عديدة ومذاهب كلامية متعددة ولعل الاطلاع على كتب يونان وفلسفاتهم كانت سبباً فى ظهور المدارس الكلامية الإسلامية . وكانت مدرسة المعتزلة الكلامية الامتداد الطبيعى إلى حد ما للقدرية [١] والجهمية . والرأى الشائع والمعروف أن اسم المعتزلة جاء نتيجة لخلاف حسن البصرى وواصل بن عطاء فى مسألة مرتكب الكبيرة ، فالخوارج قالت بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفَسَقوا بالكبائر ، وخرج واصل بن عطاء عن رأى الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، فى منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، وجلس إليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما «معتزلون» لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن ... ويذهب البغدادى إلى أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا قول الأمة فى دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر .

لكن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، أما العدل فلأنهم نزهوا الله عما يقوله خصومهم من أنه قدّر على الناس المعاصى ثم عذبهم عليها ، وقالوا إن الإنسان حر فيما يفعل ، ومن أجل هذا عُذّب على ما يفعل وهذا عدل ، وأما التوحيد فلأنهم نفوا

---

(١) ذلك أن المعتزلة وافقوا القدرية فى قولهم ان للإنسان قدرة تجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه .

ومن العجيب أن المعتزلة أحياناً يلقبوا بالجهمية لا لأنهم وافقوا الجهمية فى القدر فالجهمية جبرية ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية فى نفى الصفات عن الله وفى خلق القرآن ، وقولهم إن الله لا يُرى ، وقد ألف البخارى والإمام أحمد كتابين فى الرد على الجهمية وعنيا بهم المعتزلة ، والمعتزلة يبرأون من تسميتهم بالقدرية أو الجهمية ، ويقولون إن مثبت القدر أولى بالانتساب إليه عن نافيه ، ويتبرأ بشر بن المعتمر المعتزلى من الجهمية فيقول :

ننفيهمو عنا ولسنا منهمُ	ولا هُمُومِنّـا ولا نرضـاهُمُ
إمامهم جهم وما لجهم	وصحب عمرو ذى التقى والعلم

صفات الله ، وعدوا القول بها تقديراً لله تعالى .

والمعتزلة من أشهر الفرق الإسلامية استدلالاً على عقائدهم بالعقل . ولا يحد من ثقتهم بالعقل إلا احترامهم لأوامر الشرع

وبعد ... فهذا مدخل عام وصورة لاختلاف الفرق الإسلامية . وأهم أسباب الاختلاف

---

(١) من أهم مبادىء المعتزلة قولهم بالحسن والقبح العقليين : فالعقل عندهم يدرك حسن الأشياء وقبحها ويدرك حكم الله الحسن بطلب فعله وفي القبح بطلب تركه وبنوا آراءهم في العقائد على هذا المبدأ . فطريق وجوب المعرفة العقل لا الشرع . والمعتزلة يقولون أن الإيمان تصديق وعمل وأن مرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب من ذنبه في منزلة بين المنزلتين . ومن مبادئهم أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه . وأن الله تعالى لا يأمر إلا بما أراد ولا ينهى إلا عما كره فهو يريد الخير ولا يريد الشر . وصفة القدم خاصة بذات الله وصفة الواحدانية ولهذا أنكروا صفات المعاني حتى لا يتعدد القدماء والمعتزلة يقولون إنه يجب على الله تعالى تنفيذ وعده ووعيده ، وإرسال الرسل لعباده وتأييدهم بالمعجزات ، ورعاية الصلاح والأصلح لخلقه .
وهم يقولون باستحالة رؤية الله تعالى لاقتضائها المشابهة للحوادث ، وينكرون الشفاعة لمرتكبي الكبائر ويوجبون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويؤولون المتشابه من القرآن والسنة .
وقال أبو الحسن الخياط المعتزلي «وليس أحد يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» .
ويقول المعتزلة إن إحدى الطائفتين من «أصحاب الجمل» و«صفين» في النار لا يعينون واحدة ، وأهل السنة يؤولون التشاجر بين الطائفتين تأدباً واحتراماً لصحبتهم للنبي ﷺ وجهادهم في سبيل الدعوة الإسلامية ويقولون : الكل مجتهد يَنْشُدُ مصلحة الإسلام والمسلمين وقال المعتزلة بخلق القرآن ، ويرد أهل السنة عليهم بقولهم إن الدلالات وهى الألفاظ التي نقرؤها حادثة لأننا نتلوها بألسنتنا ونكيفها بأصواتنا وهى في حين القراءة قائمة بالحودات ومعنى حدوثها أن الله خلقها وليس لأحد في أصل تركيبها كسب ما . وأما مدلول القرآن (وهو الصفة النفسية القائمة بذاته تعالى) فقديم بلا جدال والفرق بين القراءة والمقروء كالفرق بين الذكر والمذكور فالذكر حادث والمذكور قديم . وقد تورع كثير من العلماء ومنهم الإمام أحمد عن القول بخلق القرآن وفضلوا التعذيب على أن يقولوا بخلق القران حتى دلالاته لئلا ينجرّ بعض الناس إلى اعتقاد خلق الصفة القديمة فإن كلام الله يطلق على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى ويطلق مجازاً أو بالاشتراك على القرآن الذى نقرؤه ومن هنا تورعوا عن القول بخلقه .
والحقيقة أن الخوارج يتفقون مع المعتزلة في كثير من مبادئهم فهم يتفقون معا في وجوب الخروج على الإمام الجائر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبالحسن والقبح العقليين ، والقول بالوعد والوعيد وخلق القرآن وتأويل المتشابه ، وينفون رؤية الله في الآخرة ، ويختلفون عنهم في صفة الإرادة التى اعتبرها بعضهم أزلية لا حادثة . ويذهب بعضهم إلى أن الله خلق أفعال العباد جميعها ، وليس لهم إلا مجرد اكتسابها . ومن الخوارج من يرون حرية الإرادة وقدرة الإنسان على خلق عمله وحريته .

المبحث الثانى

الخوارج فى السُّنَّة المطهرة

يبدو الإعجاز النبوى وإعجاز السنة المطهرة فى إخبار النبى ﷺ عن الخوارج والإشارة والتلميح إليهم وعلاماتهم . فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن زيد بن خالد الجهنى : أنه كان فى الجيش الذى كانوا مع على رضى الله عنه - الذين ساروا إلى الخوارج ... فقال على رضى الله عنه : أيها الناس ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء ، يقرءون القرآن ويحسبون أنه لهم وهو عليهم . لا تجاوز صلاتهم تراقيهم [١] يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية [٢] لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لا تكلوا عن العمل ... وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض ... فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم ... والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس [٣] فسيروا على اسم الله» .

قال سلمة بن كهيل : فنزلنى زيد بن وهب منزلاً حتى قال : «مررنا على قنطرة ، فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسى ... فقال لهم : ألقوا الرماح وسلوا سيوفكم من جفونها فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء ، فرجعوا فوحشوا [٤] برماحهم ، وسلوا السيوف وشجرهم [٥] الناس برماحهم ... قال :

وقتل بعضهم على بعض ، وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان ... فقال على رضى الله عنه التمسوا فيهم المخدَّج [٦] ... فالتمسوه فلم يجدوه ... فقام على بنفسه حتى أتى أناساً

---

(١) التراقى : جمع ترقوة ، وهو العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق ، والمراد عدم انتفاعهم بالعبادة .

(٢) أى يخرجون خروج السهم إذا نفذ فى الصيد المرمى وخرج من الناحية الأخرى .

(٣) هى الأنعام التى ترعى ومن يرعاها ولعل فيها السبب المباشر لقتالهم .

(٤) أى رموا بها عن بعد .   (٥) أى طعنوهم .

(٦) الذى تقدم وصفه بأنه له عضد وليس له ذراع .

قد قتل بعضهم على بعض ؛ قال : أخروهم فوجوده مما يلى الأرض فكبّر ثم قال : صدق الله وبلّغ رسوله ... قال : فقام إليه عبيدة السلمانى فقال : يا أمير المؤمنين ... الله الذى لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ فقال : أى والله الذى لا إله إلا هو ... حتى استحلفه ثلاثاً ... وهو يحلف له (١) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

بعث على رضى الله عنه – وهو باليمن بذهبة فى تربتها إلى رسول الله ﷺ فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر :

الأقرع بن حابس الحنظلى ، وعيينة بن بدر الفزارى ، وعلقمة بن علاثة العامرى ، ثم أحد بنى كلاب ، وزيد الخير الطائى ثم أحد بنى نبهان – قال فغضبت قريش فقالوا : أيعطى صناديد نجد ويدعنا ... فقال رسول الله ﷺ إنى إنما فعلت ذلك لأ تألفهم (٢) ... فجاء رجل كث اللحية ، مشرف الوجنتين ، غائر العينين ، ناتىء الجبين ، محلوق الرأس فقال : اتق الله يا محمد ... قال : فقال رسول الله ﷺ ... فمن يطع الله إن عصيته ... أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنونى ؟ ... قال : ثم أدبر الرجل ... فاستأذن رجل من القوم فى قتله [يرون أنه خالد بن الوليد] . فقال رسول الله ﷺ إن من ضِئْضِىء (٣) هذا قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ... يقتلون أهل الإسلام ، ويَدَعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ... لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ...» (٤) .

وفى رواية عنه أيضاً – بعد أن ذكر قصة هذا الرجل – فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ... ائذن لى فيه أضرب عنقه ... فقال رسول الله ﷺ . «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ... يقرءون القرآن لا يجاوز

---

(١) النووى على مسلم جـ ٧ ص ١٧١ ، ورواه أبو داود جـ ٤ رقم ٤٤ ، ورقم ٤٧٦٨ . وفى البخارى بعضه بنحوه جـ ٤ ص ١٦٠ وجـ ٩ ص ١٥ .

(٢) استميلهم إلى الإسلام بما يحبونه من المال حتى يتم تفهمهم له .

(٣) أى من عنصره وذريته .

(٤) النووى على مسلم جـ ٧ ص ١٦١ والبخارى جـ ٩ ص ١٢٩ وأبو داود جـ ٤ ص ٢٤٣ .

تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ـ ينظر إلى نصله (١) فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رِصَافه (٢) فلا يوجد فيه شيء ـ ثم ينظر إلى قضيه فلا يوجد فيه شيء ـ وهو القدح (٣) ثم ينظر إلى قُذَذه (٤) فلا يوجد فيه شيء ـ سبق الفرث (٥) والدم ـ آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة (٦) تدردر (٧) يخرجون على حين فرقة من الناس (٨) .

قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أنّ علياً بن أبي طالب – رضي الله عنه – قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتُمِس فوجد فأُتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعت (٩) .

ومن ذلك كله يتضح لنا مدى الإعجاز النبوي في التنبيه على الخوارج وجنورهم .

وحكى ابن الجوزي أن الخوارج قالوا لعبد الله بن خباب بن الأرت : هل سمعت من أبيك حديثاً تحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه ـ قال نعم ـ سمعت أبي يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول (١٠) . قالوا : أنت سمعت هذا من أبيك تحدثه عن رسول الله ـ قال نعم ـ فقدموه إلى شفير النهر (١١) فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك نعل (١٢) وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها وكانت حبلى (١٣) .

ولهذا قاتلهم الإمام علي وأمامه الحجة والدليل على أنهم المقصودون بالأحاديث

---

(١) النصل : حديدة السهم .
(٢) الرِّصاف : بكسر الراء : مدخل النصل من السهم .
(٣) القدح : السهم قبل أن يركب نصله .
(٤) القُذَذ : بضم القاف ريش السهم .
(٥) الفرث : ما في الكرش .
(٦) البضعة : بفتح الباء قطعة اللحم .
(٧) تدردر : تضطرب .
(٨) أي في حالة الفرقة بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما .
(٩) النووي على مسلم جـ ٧ ص ١٦٥ ، والبخاري جـ ٩ ص ١٥ ، ورواه مالك في الموطأ باختصار ص ١٤٤ ط الشعب ، وابن ماجه مختصراً جـ ١ ص ٣٨ ، وأحمد بنحوه جـ ٣ ص ٣٢٤ .
(١٠) وفي رواية «فمن استطاع أن يكون مقتولاً فلا يكونن قاتلاً» .
(١١) شاطيء النهر .
(١٢) أحد سيوره التي تكون على وجهه .
(١٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٩١ .



النبوية الشريفة ولقد بينت كتب السنّة الصحيحة هذا الأمر عن الخوارج ومناقشة على لهم .

فعن عبد الله بن عياض بن عمرو القارى أنه جاء عبد الله بن شداد ابن الهاد ، فدخل على عائشة رضى الله عنها - ونحن عندها جلوس - مرجعه من العراق ليالى قتل على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقالت له : يا ابن شداد بن الهاد ... هل أنت صادقى عمّا أسألك عنه ؟ حدّثنى عن هؤلاء القوم الذين قتلهم على . قال : ومالى لا أصدقك ؟ قالت : فحدّثنى عن قصتهم ... قال : فإنّ علياً بن أبى طالب لمّا كاتب معاوية وحكم الحكمان ، خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس ، فنزلوا بأرض يقال لها حروراء من جانب الكوفة ... وأنهم عيبوا عليه فقالوا : انسلخت من قميص كساكه الله ، واسم سمّاك الله به [1] .

ثم انطلقت فحكمت فى دين الله فلا حكم إلا لله ... فلما بلغ علياً ما عيبوا عليه وفارقوه عليه ... أمر مؤذناً فأذن أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلا من قد حمل القرآن ، فلما امتلأت الدار من قراء الناس ... دعا بمصحف إمام [2] عظيم فوضعه بين يديه ، فجعل يصكه بيده [3] ويقول : أيها المحصف : حدّث الناس ... فناداه الناس ... يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه ؟إنما هو مداد من ورق يتكلم بما رأينا منه فما يزيد ... قال : أصحابكم أولئك الذين خرجوا بينى وبينهم كتاب الله [4] يقول الله فى كتابه فى امرأة ورجل : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) [النساء : ٣٥] ... فأمة محمد ﷺ أعظم حرمة أو ذمة من رجل وامرأة .

ونقموا علىّ أنى كاتبت معاوية : كتبت على بن أبى طالب ... وقد جاء سهيل بن عمرو فكتب رسول الله ﷺ . بسم الله الرحمن الرحيم ... قال : لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم . قال وكيف نكتب ؟ قال سهيل : اكتب باسمك اللهم ... فقال رسول الله فاكتب : محمد رسول الله ... فقال لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ... فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد

---

(١) حيث أبى الشاميون أن يقبلوا كتابه : «هذا ما قضى عليه أمير المؤمنين على معاوية» . واشترطوا كتابة علىّ فقط بدون لقب أمير المؤمنين . قبل ذلك حقنا للدماء وأملاً فى إحلال الصفاء واقتداء بالرسول ﷺ فى الحديبية .

(٢) أى مصحف من المصاحف التى فرقها سيدنا عثمان على الأمصار وجمع عليها المسلمين .

(٣) ينقر عليه بيده . (٤) الذين يدعون التمسك به دون سواه .

الله قريشاً ... يقول الله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) .

فبعث إليهم ابن عباس ... فخرجت معه ... حتى إذا توسطنا عسكرهم قام ابن الكواء فخطب الناس فقال : يا حملة القرآن ... هذا عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فليعرفه ، فأنا أعرفه من كتاب الله هذا ممن نزل فيه وفي قومه (قوم خصمون) [الزخرف : ٥٨] ، فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه كتاب الله [١] ... قال : فقام خطباؤهم فقالوا : والله لنواضعنه الكتاب [أي لنوافقنه في الاحتكام إلى كتاب الله]. فإن جاء بالحق نعرفه لنتبعنه ... وإن جاء بالباطل لنبكتنه [٢] بباطل ولنردنه إلى صاحبه ... فواضعوا عبد الله ابن عباس ثلاثة أيام ... فرجع منهم أربعةآلاف تائب فيهم ابن الكواء [٣] حتى أدخلهم على الكوفة ، فبعث على إلى بقيتهم فقال : قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم فقفوا حيث شئتم ، بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً أو تقطعوا سبيلاً ، أو تظلموا ذمة ، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فقالت عائشة : يا ابن شداد فقد قتلهم ... قال : فو الله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدماء واستحلوا الذمة ... فقالت : والله ... قال : الله الذي لا إله إلا هو لقد كان ﷺقالت : فما شيء بلغني عن أهل العراق يتحدثونه يقولون : ذا الثدية مرتين ... قال : قد رأيته وقمت مع علي على القتلى ... دعا الناس فقال : أتعرفون هذا - فما أكثر من جاء يقول : رأيته في مسجد بني فلان يصلي - ولم يأتوا فيه بثبت يعرف إلا ذاك ... قالت : فما قول علي حين قام عليه كما يزعم أهل العراقﷺ قال سمعته يقول صدق الله ورسوله [٤] .

وعن أبي زميل سماك الحنفي ، حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : (لما خرجت الحرورية ، اجتمعوا في دار - وهم ستة آلاف - أتيت علياً فقلت يا أمير المؤمنين :

(١) وهذا يعني أن ابن الكواء كان يريد أن تظل الفتنة قائمة والخلاف مشتعل لا ويحاول اغلاق كل محاولة للتفهم أمام ابن عباس .

(٢) التبكيت : التحقير وتقبيح الفعل .

(٣) لكن رجوع ابن الكواء لم يكن أكثر من تحايل وعدم إخلاص .

(٤) رواه الحاكم في المستدرك جـ ٢ ص ١٥٢ ، ومجمع الزوائد جـ ٦ ص ٢٣٥ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

أبرد بالظهر لعلى آتى هؤلاء القوم فأكلمهم ... قال : إنى أخاف عليك ... قلت : كلا ... قال ابن عباس : فخرجت إليهم ولبست أحسن ما يكون من حلل اليمن ... قال أبو زميل : كان ابن عباس جميلاً جهيراً .

قال ابن عباس : فأتيتهم وهم مجتمعون فى دارهم قائلون ، فسلّمت عليهم ... فقالوا : مرحباً بك يا ابن عباس ... فما هذه الحلة قال : قلت : ما تعيبون على ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل ونزلت (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الأعراف : ٣٢ . قالوا فما جاء بك ؟ قلت : أتيتكم من عند صحابة النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار لأبلغكم ما يقولون ، فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلَم بالوحى منكم ، وفيهم أنزل ، وليس فيكم منهم أحد [١] ... فقال بعضهم [٢] : لا تخاصموا قريشاً فإن الله يقول : (بل هم قوم خصمون) .

قال ابن عباس :

وأتيت قوماً لم أر قوماً قط أشد اجتهاداً منهم ... مسهمة وجوههم من السهر كأن أيديهم وركبهم تثنى عليهم ... فقال بعضهم : لنكلمه ولننظرن ما يقول ... قلت : أخبرونى ماذا نقمتم على على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار ؟ قالوا : ثلاثاً . قلت : ما هن ؟ قالوا : أما إحداهن : فإنه حكّم الرجال فى أمر الله وقال الله تعالى (إن الحكُم إلا لله) [يوسف ٤٠ ، ٦٧ . والأنعام : ٥٧] .

وما للرجال وما للحكم ؟ فقلتُ : هذه واحدة ... قالوا : وأما : الأخرى : فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ... فإن كان الذى قاتل كفاراً لقد حل سبيهم وقتالهم ... ولئن كانوا مؤمنين ما حلّ قتالهم ... قلت : هذه اثنتان ، فما الثالثة ؟ قالوا : إنه محا نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين [٣] قلت أعندكم سوى هذا ؟ قالوا : حسبنا هذا ... فقلت لهم : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ، ومن سُنّة نبيه ﷺ ما يرد قولكم ... أترضون ؟ قالوا : نعم ... قلت :

(١) وهذا دليل على أنه لم يكن فيهم صحابى واحد .
(٢) وهو كما أشرنا من قبل ابن الكواء .
(٣) لأنهم – كما نعلم – يكفرون من خالفهم .

أما قولكم حكّم الرجال فى أمر الله ... فأنا أقرأ عليكم ما قد رد حكمه إلى الرجال فى ثمن ربع درهم فى أرنب ونحوها من الصيد ... فقال : يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم ...) [المائدة : ٩٥] ... فنشدتكم الله ... أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل ... أم حكمهم فى دمائهم وصلاح ذات بينهم ؟ وإن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال .

وفى المرأة وزوجها – قال الله عز وجل : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلِها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) .

فجعل الله حكم الرجال سُنّة مأمونة ... أخرجت عن هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأما قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم . أتَسبُون أمكم عائشة ثم تستحلون منها ما يستحل من غيرها ؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم وهى أمكم .

ولئن قلتم ليست أمنا ، لقد كفرتم ، فإن الله تعالى يقول :(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) [الأحزاب : ٦] .

فأنتم تدورون بين ضلالتين – أيهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة ... فنظر بعضهم إلى بعض ... قلت : أخرجت عن هذه ؟ قالوا : نعم ... قلت :

وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون [أى بما ترضون من الدليل القاطع المقنع] وأريكم ... قد سمعتم أن النبى ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيلاً بن عمرو وأبا سفيان بن حرب ... فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين : أكتُب يا على ... هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله ﷺ .

فقال المشركون : لا ... والله ما نعلم أنك رسول الله ... لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ... فقال رسول الله ﷺ . اللهم إنك تعلم أنى رسول الله ... أكتب يا على ... هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله . فو الله لرسول الله خير من على ، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه ... قال عبد الله بن عباس :

فرجع من القوم ألفان وقتل سائرهم على ضلالة[١].

ومن هذه الروايات كلها المتشابهة فى المعنى نلاحظ أنها روايات يكمل بعضها بعضاً ورجال هذه الروايات هم رجال الصحيح مما يكسب روايتهم القوة والصحة والصدق ... ولعل الاختلاف فى عدد من رجع من الخوارج وتاب يعود فى المقام الأول إلى أن بعضهم رجع عن اقتناع عقلى وقلبى ، ومنهم من رجع فى الظاهر ثم عاد إلى فكره الخارجى لأنه مذبذب العقيدة مضطرب النفس ... لكننا كما رأينا أن هذه الروايات جميعاً يكمل بعضها بعضاً .

---

(١) الحاكم فى المستدرك جـ ٢ ص ١٥٠ واللفظ له ، ومجمع الزوائد جـ ٦ ص ٢٤٩ . وقال رواه الطبرانى وأحمد ببعضه . ورجاله الصحيح .

المبحث الثالث

نشأة الخوارج وأهم صفاتهم

من المعروف أن فرقة الخوارج نشأت - فى أرجح الآراء - بسبب التحكيم فى الخلاف بين الإمام على رضى الله عنه ومعاوية فى موقعة صفين (١) ، لما طلب معاوية وأصحابه فى صفين «سنة ٣٧ هـ» من الإمام على أن يتحاكم الفريقان إلى القرآن الكريم تردد على كرم الله وجهه فى قبول وجهة نظرهم لمعرفته بدهاء معاوية وعمرو بن العاص صاحب فكرة رفع المصاحف والتحاكم إلى القرآن الكريم ، لكن بعض أصحاب علىّ حثه على قبول فكرة التحاكم إلى القرآن الكريم ، فقبل الطيب الكريم رضى الله عنه الفكرة ورضخ للرأى حتى لا يؤدى رفضه إلى افتراق جماعته .

روى أن الأشعث بن قيس ومسعود بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى قالوا لسيدنا (على) : الناس يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف ! فلترجعن «الأشتر» [قائد جند على] عن قتال المسلمين أو لنفعلن بك ما فعلنا (بعثمان) (٢) فأمر علىّ «الأشتر» بالكف عن القتال بعد أن كان نصر الأشتر وشيكاً .

ثم أراد على أن ينيب عنه فى قضاء الحكمين عبد الله بن عباس للتحكيم فما رضى الخوارج بذلك وقالوا هو منك .

فحملوه على إرسال أبى موسى الأشعرى على أن يحكم بكتاب الله ، ولما جرى الأمر على خلاف الحق ، رفض على قبول حكم الحكمين ، فخرج عليه بعض أصحابه وقالوا لماذا حكمت الرجال ؟ لا حكم إلا لله فقال الإمام علىّ : كلمة حق يراد بها باطل ، إنما يريدون لا

---

(١) صفين موضع على شاطىء الفرات بقرب الرقة .

(٢) من الملاحظ أن ابن كثير يصف الثائرين على عثمان بـ «الخوارج» أثناء تعرضه للفتنة وملابساتها «البداية والنهاية» لابن كثير جـ ٧ ص ١٨٩ .

ويرى الشهرستانى أن الخارجى هو كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه . [الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٠٥] .

إمارة ولا بد من إمارة برّة ، أو فاجرة ، ثم انحازوا إلى «حروراء» [1] وأعلنوا بذلك خروجهم على «على» و«معاوية» و«الحكمين» وكل من رضى بالتحكيم . فكانوا هم جماعة الخوارج الأولى .

وقد يسمى الخوارج بالحرورية نسبة إلى حروراء وهى القرية التى خرجوا إليها .

وسموا بالمحكمة أى الذين يقولون لا حكم إلا لله [2] وسموا أنفسهم الشراة أى الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى (ومن الناس مَنْ يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

ونخلص من ذلك أن المحكمة الأولى من الخوارج هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علىّ عليه السلام فى صفين وأول من خرج منهم : الأشعث بن قيس الكندى ، ومسعود بن فدكى التميمى ، وزيد بن حصين الطائى .

وخرج على علىّ يوم التحكيم : «عبد الله بن الكواء» ، وعتاب بن الأعور ، وعبد الله بن وهب الراسبى ، وعروة بن جرير ، ويزيد بن عاصم المحاربى ، وحرقوص بن زهير البجلى المعروف بذى الثدية» [3] .

وهؤلاء هم المحكمة الذين قالوا لعلى رضى الله عنه لما حكم الحكمين : «إن كنت تعلم أنك الإمام حقاً فلم رضيت بحكميهما ، وإن كنت لم تعلم أنك الإمام حقاً فلم أمرتنا بالمحاربة ، ثم انفصلوا عنه لهذا السبب وكفروا علياً ومعاوية رضى الله عنهما [4] .

وهناك رأى لصاحب المقالات [5] الأشعرى يقول فيه «ويقال إن أول من حكم بصفين «عروة بن بلال بن مرداس» .

ورأى آخر يقول «إن أول من قال «لا حكم إلا لله» عروة بن حدير (ويقال ابن جرير) ،

---

(١) قرية قريبة من الكوفة .

(٢) سماهم المقريزى الحكمية وعرفهم بأنهم الذين خرجوا على علىّ فى صفين وقالوا لا حكم إلا لله ولا حكم للرجال المقريزى جـ ٢ ص ٣٥٤ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٠٥ .

(٤) اعتقادات الرازى ص ٤٦ .

(٥) مقالات جـ ١ ص ١٩٢ .

قالها بصفين ، وقيل يزيد «ويقال زيد» ، بن عاصم المحاربى ، قال : وكان أميرهم أول ما اعتزلوا ابن الكواء ، ثم بايعوا لعبد الله ابن وهب الراسبى» .

والحق أن أقوال المتكلمين فيمن كان أول المحكمة فيها اختلاف كبير .

لكن المهم أن نقول بعد ذلك إنه كما أشرنا من قبل فإن الخوارج بعد رجوع علىّ من صفين إلى الكوفة انحازوا هم إلى حروراء وزعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء ، وشبث بن ربعى ، ويقول الرسعنى [١] «وناظرهم علىّ فاستأمن إليه ابن الكواء مع عشرة من الفرسان ، وانحاز الباقون منهم إلى النهروان وأمّروا على أنفسهم رجلين :

أحدهما عبد الله بن وهب الراسبى ، والآخر حرقوص بن زهير البجلى المعروف بذى الثُّدية .

ورأوا فى طريقهم رجلاً هارباً منهم فقالوا له [٢] «مَنْ أنت» ، قال : «أنا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ . فقالوا : «حدثنا حديثاً سمعته من أبيك عن رسول الله ﷺ . فقال : سمعت أبى يقول : قال رسول الله ﷺ : ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى والماشى خير من الساعى . فمن استطاع أن يكون مقتولا فلا يكونن قاتلاً» . فحمل عليه رجل من الخوارج يقال له مِسْمَعْ بسيفه فقتله . فجرى دمه فوق ماء النهر كالشراك إلى الجانب الآخر . ثم إنهم دخلوا منزله وكان منزله فى القرية التى قتلوهُ على بابها ، فقتلوا ولده وجاريته أم ولده . ثم عسكروا بنهروان . وانتهى خبرهم إلى علىّ عليه السلام فسار إليهم فى أربعة آلاف وبين يديه عدى بن حاتم الطائى . فلما قرب منهم علىّ عليه السلام أرسل إليهم يقول «سلموا لى قاتل عبد الله بن خباب» فأرسلوا إليه «كلنا قتلَهُ . وإن ظفرنا بك لنقتلنك» .

فتقدم إليهم «علىّ» فى جيشه وبرزوا إليه بجمعهم . فقال لهم قبل القتال «ماذا نقمتم

---

(١) صاحب مختصر كتاب الفرق ص ٦٨ جـ ١ ص ٧٢ . والنص موجود أيضاً فى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٧٥ : ٨١ .

(٢) أشرنا إلى هذه الحادثة فى المبحث السابق باختصار وهذا هو تفصيلها وتفصيل الحوار بين الخوارج والإمام علىّ كرّم الله وجهه .

منا» ؟ ـ فأرسلوا إليه «أول شيء نقمنا منك أنّا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزموا أبحت لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال ، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم : فكيف استحللت مالهم دون نسائهم والذرية ؟» . فقال «إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً عما كانوا غاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم . النساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر . وبعد فلو أبحت لكم النساء أيكم كان يأخذ عائشة في سهمه ؟» فخجل القوم من هذا .

ثم قالوا له «نقمنا عليك محوك أمير المؤمنين عن اسمك من الكتاب بينك وبين معاوية» . فقال «فعلتُ مثل ما فعل رسول الله يوم الحديبية حين قال له سُهيل بن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله لما نازعناك ولكن اكتب باسمك واسم أبيك . فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . وأخبرني رسول الله أن لي منهم يوماً مثل ذلك» .

قالوا : «فلم حكّمت الحكمين ؟ فإن كنت في شكٍّ من خلافتك فغيرك أولى بالشك» . فقال : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية . ولو قلتُ للحكمين احكما لي بالخلافة لم يرض معاوية وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة فقال (تعالوا ندعُ) . إلى قوله تعالى : (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) آل عمران : ٦١ . ولو قال : نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم لم يرض النصارى بذلك . فأنصفهم بذلك . ولم أدر غدر عمرو بن العاص . قالوا «فلم حكّمت في حق كان لك ؟» قال : وجدت رسول الله ﷺ حكّم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل . لكنّ حكَم رسول الله ﷺ حكم بالعدل . وحكمي خُدِع حتى كان من الأمر ما كان . فهل عندكم من شيء سوى هذا ؟» فسكت القوم وقال أكثرهم «صدق والله» وقالوا التوبة (١) واستأمن إليه يومئذ منهم ثمانية آلاف . وانفرد منهم أربعة آلاف مع عبد الله ابن وهب وحرقوص بن زهير البجلي . وقال «علي» للذين استأمنوا إليه اعتزلوني اليوم . وقاتل الخوارج بالذين قدموا معه . وقال لأصحابه : قاتلوهم ، فو الذي نفسي بيده لا يقتل منا عشرة ، ولا ينجو عشرة منهم ، فقتل من أصحاب عليّ يومئذ تسعة وهم : تؤيبة بن وبرة البجلي ، وسعد بن مجالد السبيعي ، وعبد الله بن حماد الجريري ، ورفاعة بن وائل الأرحبي ، والفياض بن خليل الأزدي ، وكيسوم بن سلمة الجهني ، وعتبة بن عبيد الخولاني ، وجميع بن جشم الكندي ، وحبيب بن عاصم الأودي .

وبرز حرقوص بن زهير ، إلى عليّ - رضى الله عنه - وقال : يا ابن أبي طالب : لا ريد بقتلك إلا وجه الله والدار الآخرة ، وقال له عليّ : بل مثلكم كما قال الله عز وجل : (قل ل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم حسنون صنْعاً) الكهف ١٠٣ - ١٠٤ . منهم أنت ورب الكعبة ، ثم حمل عليه فى أصحابه ، قتل عبد الله بن وهب فى المبارزة ، وصرع ذو الثدية عن فرسه . وقتلت الخوارج يومئذ ، فلم يفلت منهم غير تسعة أنفس ، صار منهم رجلان إلى سجستان ، ورجلان إلى اليمن ومن أتباعهما أباضية اليمن . ورجلان صارا إلى عمان ومن أتباعهما خوارج عمان ، ورجلان صارا إلى ناحية الجزيرة ومن أتباعهما كان خوراج الجزيرة ، ورجل منهم صار إلى مكان آخر يقال له «تل مَوْزن» وقال على لأصحابه يومئذ : اطلبوا ذا الثدية ، فوجدوه تحت دالية ، ورأوا تحت يده عند الأبط ، مثل ثدى المرأة ، فقال : صدق الله ورسوله [١] وأمر به فقتل .

فهذه قصة المحكمة الأولى ، وكان دينهم : إكفار على وعثمان وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضى بالتحكيم ، وإكفار كل ذى ذنب ومعصية .

ثم لم تزل الخوارج تخرج على على إلى أن قُتل عليه السلام فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، حيث قتله عبد الرحمن بن مُلجم الخارجى [٢] وكان زوجاً لامرأة قُتل كثير من أفراد أسرتها فى وقعة النهروان . وبعد مقتل علىّ خرجت الخوارج بعده على معاوية وظلوا مع الدولة الأموية فى حروب طويلة ، وفى عهد العباسيين ضعفت شوكة الخوارج وانهارت قواهم وضعف تأثيرهم وقلت جموعهم وفتروا تماماً عن الحروب .

والحقيقة أن الخوارج عرفوا بعصبيتهم العربية فقد كانت القبائل التى انتشر فيها مذهب الخوارج من القبائل «الربعية» ، لا من القبائل المضرية ، والنزاع بين القبائل الربعية

---

(١) ذكرت من قبل فى كتاب السُّنَّة وبخاصة الحاكم فى المستدرك ، وأحمد . ورجاله رجال الصحيح حواراً بين ابن عباس والخوارج شبيهاً بهذا الحوار بين على والخوارج ... ويبدو لى أن الذى حاور الخوارج هو ابن عباس رضى الله عنه لأن الأحاديث الخاصة به مروية عن طريق رجال الصحيح . ولكن لا مانع أيضاً أن يكون الإمام على حاورهم أيضاً لإقناعهم بسلامة رأيه وصحة اجتهاده .

(٢) يقصد أن النبى أشار إلى هذا الحدث من قبل حدوثه فقال : «سيخرج من ضئضىء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية ، وهم الذين أولهم ذو الخويصرة ، وآخرهم ذو الثدية» .

والمضرية قديم منذ العصر الجاهلي - كما أشرنا من قبل - وقد أخفاه الإسلام قليلاً لكنه ظهر ثانية في شكل خارجي (١) .

كان معظم الخوارج من عرب البادية الربعية وقد عرفوا بالتعصب والحماسة والاندفاع السريع في آرائهم .

كما عرفوا بتمسكهم بظواهر الألفاظ فتمسكوا بظواهر الألفاظ القرآنية لا يتجاوزون الظاهر إلى المرمى والموضوع .

وقد عُرف عن الخوارج أيضاً التشديد في العبادة (٢) ويروى أن عبد الله بن عباس حينما ناقشهم رأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود ، وأيدى كثفنات الإبل عليها قمص مرحضة (أى طاهرة) (٣) .

كما عُرف الخوارج بالإخلاص الشديد لعقيدتهم والشجاعة في حروبهم وكانوا مصدر قلق للدولة الأموية فقد «ظلت الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة ، وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدولة ، وكانوا فرعين : فرعاً بالعراق وما حولها ، وكان أهم مركز لهم

---

(١) قال فيه أحد شعراء الخوارج الصفرية عمران بن حطان :

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضواناً

إني لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزاناً

(٢) لعل ذلك أحد الأسباب النفسية التي جعلت الخوارج يقولون بجواز الإمامة في قريش أو غيرها فقد رأوا أن الخلفاء من مُضَرٍ . وهم لم ينسوا قط الصراع القديم بين الربعين والمضريين .

(٣) قال أبو حمزة الخارجي في وصف أصحابه الخوارج «شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلُهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاع سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ بآيةٍ من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرّ بآيةٍ من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كَلالُهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فُوِّقَتْ ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معاصمها طالماً اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله» .

«البطائح» بالقرب من البصرة ، وقد استولوا على كرمان وولاية فارس وهددوا البصرة ، وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب بن أبي« صفرة ، واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة .

وفرعاً بجزيرة العرب استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف ، ومن أشهر أمرائهم فيها أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فديك .

ولم يتغلب الأمويون على هذين الفرعين إلا بعد حروب طويلة شديدة استمرت طوال عهد الدولة الأموية .

ثم كانوا كذلك في الدولة العباسية ، ولكن لم يكن لهم من القوة ما كان لهم فى عهد الأمويين ، فقد ضعف شأنهم وانحط» [١] .

وكان الخوارج من أشد الفرق الإسلامية جرأة وإندفاعاً وحماسة وتهوراً فى سبيل الدفاع عن عقائدهم وإنهم بحق كما يقول الشيخ أبو زهرة [٢] «ليشبهون فى استحواذ الألفاظ البراقة على نفوسهم واستيلائها على مداركهم اليعقوبيين الذين ارتكبوا أقسى الفظائع وأشد الشنائع فى الثورة الفرنسية ، فقد استولت على هؤلاء ألفاظ الحرية والمساواة والإخاء ، وباسمها قتلوا الناس ، وأهرقوا الدماء وأولئك استولت عليهم ألفاظ الإيمان ولا حكم إلا لله ، والتبرؤ من الظالمين ، وباسمها أباحوا دماء المسلمين وخضبوا البلاد الإسلامية بالدماء ، وشنوا الغارة فى كل مكان ، ويظهر أن الحماسة التى امتازوا بها كانت الوحدة الجامعة بينهم وبين اليعقوبيين ، وما صدر عن الفريقين من أعمال متشابهة ، كان لهذه الحماسة وقوة العاطفة» ولقد كان الخوارج أكثر الفرق الإسلامية حماسة لأفكارهم ومبادئهم وعرفوا بالتهور والإندفاع الشديد والاستمساك بظواهر الألفاظ ، والاستهداف للمخاطر بداع أو بدون داع قوى لذلك نتيجة تعصبهم الأعمى لمبادئهم وعقائدهم .

وكان الخوارج كثيراً ما يختلفون ولعل هذا هو السبب فى اخفاقهم فى كثير من

---

(١) الكامل للمبرد : جـ ٢ : ص ١٤٣ .

(٢) فجر الإسلام جـ ١ فى الحياة العقلية ص ٣٠٨ .

(١) تاريخ الجدل للشيخ أبو زهرة ص ١٤٧ .

المعارك رغم شجاعتهم النادرة فى القتال . يقول الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق [١] «على أن من أهم أسباب إخفاق حركات الخوارج وفشل ثوراتهم ، تفشى الخلافات داخل جماعتهم ، وهى خلافات كان الباعث عليها فى الغالب الاختلاف فى المبدأ والرأى . فقد تباينت آراؤهم فى مسائل عدة . وأدى ذلك إلى انقسامهم إلى فرق ... ومما زاد من خطورة هذا الانقسام أنه كان يحدث فى الأوقات العصيبة إبان حروبهم فكان يحرمهم من جنى ثمار النصر ويؤدى بهم إلى الهزائم» [٢] .

ونحن نرى أن الخوارج هم أول حزب سياسى تكون فى تاريخ الإسلام بعد موقعة صفين وإعلان نتيجة التحكيم بين أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص .

ويرى الدكتور النشار أن المسلمين حتى مقتل الحسين كانوا مسلمين فحسب لا سنة ولا شيعة ، ولم تظهر فكرة (الوصاية أو الإمامة) فكريا أو سياسياً إلا فى فرقة الخوارج أى قبل ظهور التشيع» [٣] .

---

(١) فى كتابه الخوارج فى بلاد المغرب ص ٢٧ .

(٢) من أمثلة ذلك «خروج عبد ربه الكبير على قطرى بن الفجاءة وهو يقاتل المهلب ٧٧ هـ ٦٩٦م ، لأن قطرى تأول فأخطأ فانفصل عنه عبد ربه بمعظم الجيش بعد أن كان النصر وشيكاً ، واتيح للمهلب سحقهما واحداً بعد الآخر» المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفى جـ ٢ للدكتور النشار ص ١٨ .

المبحث الرابع

مناقشة لأهم أفكار وآراء الخوارج في ضوء الفكر الإسلامى الصحيح

عاشت مبادىء وأفكار الخوارج فى عالمنا الإسلامى ردحاً قليلاً من الزمن لأن أفكارهم اتسمت بالعنف وتكفير غيرهم .

ونستطيع أن نفند معظم آراء الخوارج حين نناقشها فى ضوء الفكر الإسلامى الصحيح .

فإذا كان من مبادئهم المعروفة حلّ قتل مخالفيهم . فإن الدين العظيم لا يحل دم مؤمن إلا بثلاثة خلال : الرجم للزانى المحصن ، أو قتل نفس عمداً فيقتل القاتل جزاء وفاقاً ، وإذا ارتد الإنسان بعد إيمان فيقتل لارتداده .

أما مسألة ولايتهم للشيخين أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعمر بن الخطاب رضى الله عنه . وتكفيرهم لذى النورين والإمام علىّ كرم الله وجهه لأن عثمان ولىّ عمالاً من أقاربه فجار بعضهم وحكّم بغير ما حكم الله فكفر فى رأيهم ولأن علياً حكّم الحكمين وخلع نفسه عن إمارة المؤمنين وحكم فى دين الله فكفر فى رأيهم .

فهذه قضية أشرنا من قبل إليها وعرفنا كيف رد عليهم الإمام على وابن عباس وبينا لهم الخطأ الواضح فى رأيهم لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل الحكم إلى عباده فى كثير من الأمور الحياتية والسياسية .

ثم أليس عثمان وعلى كانا أميرين للمؤمنين بالإجماع . قال الخوارج بل كانا أميرين للمؤمنين بإجماع ثم كفرا . «فالإجماع على إيمانهما وولايتهما ثابت حتى يجىء إجماع مثله فيزيل ولايتهما وإيمانهما ، ويثبت كفرهما ، فلا حجة لهم بعد هذا البيان فى تكفيرهما» (١) .

إن عثمان وعلى رضى الله عنهما وليا أمر المسلمين بالإجماع وما دام الأمر كذلك فلا

---

(١) التنبيه والرد للملطى ص ٥٠ .

يحق لأحد أن ينازعهما الأمر إلا أن يرى منهما كفراً بواحاً ظاهراً ولم يُعرف عنهما – رضى الله عنهما – أبداً ذلك ، روى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره وعلى اثرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ولا نخاف فى الله لومة لائم» وفى رواية : «وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان» .

وإذا كان صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى كافراً ، ولا يجوز أن يجرى عليه أحكام الكفرة فكيف يستحق الإمامان الجليلان عثمان وعلى أن يحكم عليهما الخوارج بالكفر . وهما ليسا من أصحاب الكبائر وإذا كان أصحاب الكبائر لا يحق لنا أن نطلق عليهم كفاراً فمن باب أولى من بُشراً بالجنة لا يجوز لنا أن نطلق عليهما كفاراً أو نحكم عليهما بالكفر . وهما صحابيان شريفان والرسول ﷺ يحذرنا ويقول «الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضاً بعدى . مَنْ آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه . فاتقوا الله ثم اتقوا الله» (١) .

والخوارج لم يكفروا «عثمان» و «علياً» فقط بل كفروا أصحاب الجمل ، وفيهم نفر من صحابة رسول الله ﷺ ثم إن أصحاب الجمل لم يقتلا المؤمنين عمداً وإنما قتالهم فيه قتال البغاة وهم مؤمنون . يقول تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) فأصحاب الجمل قاتلوا على هذا المعنى فلا يحق للخوارج أن يطلقوا عليهم لقب الكفر لأن منهم سابقون أوَّلون للإسلام من المهاجرين والأنصار . يقول تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم) التوبة : ١٠٠ وفى أصحاب الجمل من بايع تحت الشجرة . ولقد روى أبو داود والترمذى وصححه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» . وقال تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً) وقال رسول الله ﷺ . «إذا رأيتم الذين

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن جـ ٩ ص ٣٨٦٠ .

يسبون أصحابى فقولوا لعنة الله على شرككم» (١) .

وقال الإمام أبو زرعه الرازى وهو من أجل شيوخ البخارى : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ حق والقرآن الكريم حق وما جاء به حق ، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة ، فمن جرحهم إنما أراد إبطال الكتاب والسنة ، فيكون الجرح بهم ألصق ، والحكم عليه بالزندقة والضلالة والكذب والفساد هو الأقوم الأحق .

وقال الإمام أحمد : إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام وقال الإمام مالك : من شتم النبى ﷺ قتل ومن سب أصحابه أدب .

وقال اسحق بن راهويه : من شتم أصحاب النبى ﷺ يعاقب ويحبس .

وقال القاضى أبو يعلى : الذى عليه الفقهاء فى سب الصحابة إن كان مستحلا لذلك كفر وإن لم يكن مستحلاً فسق .

ويقول الإمام ابن حزم الأندلسى : «الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً ، قال تعالى : (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) . وقال تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) فثبت أن جميعهم من أهل الجنة وأنه لا يدخل أحد منهم النار لأنهم المخاطبون بالآية الأولى التى أثبتت لكل منهم الحسنى وهى الجنة ، ولا يتوهم أن التقييد بالانفاق أو القتال فيها وبالإحسان فى «الذين اتبعوهم بإحسان» يخرج من لم يتصف منهم لأن تلك القيود خرجت مخرج الغالب فلا مفهوم لها على أن المراد من اتصف بذلك ولو بالقوة أو العزم .

يقول تعالى : (يوم لا يُخْزِى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانِهِم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) .

والله سبحانه لم يزل راضياً عنهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم

---

(١) رواه الترمذى فى المناقب ص ٥٩ .

فتحاً قريباً) ومعلوم أن الرضا من الله تعالى لا يكون إلا على مَنْ علم موته على الإيمان والإسلام (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جناتٍ تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

وفى شرح جوهرة التوحيد : «واختلف فى ساب الصحابى ، فقال عياض : قال يعزر وقال بعض المالكية : يقتل ، وخصّ بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنين ، وقواه السبكى فيمن كفر الشيخين ، وفيمن كفر من صرح الرسول ﷺ بإيمانه أو بتبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر به»[1] .

وقد رد على الخوارج فى مسألة تكفيرهم صاحب الكبيرة القاضى عبد الجبار المعتزلى فى شرح الأصول الخمسة فقال[2] : «إن صاحب الكبيرة لا يسمى كافراً لأن الشرع جعل اسم الكفر على من يستحق العقاب العظيم ، ويختص بأحكام مخصوصة نحو المنع من المناكحة والموارثة والدفن فى مقابر المسلمين ، ومعلوم أن صاحب الكبيرة ممنّ لا يستحق العقاب العظيم ، ولا تجرى عليه هذه الأحكام ، فلم يجز أن يسمى كافراً .

والأصل فى الكلام على الخوارج أن نحقق عليهم الخلاف ، فنقول إن هذا الخلاف إما أن يكون خلافاً من جهة اللفظ ، أو من طريق المعنى . فإن خالفتمونا من حيث اللفظ وقلتم : إن صاحب الكبيرة يسمى كافراً فلا يصح لأنا قد ذكرنا أن الكافر اسم لمن يستحق العقاب العظيم ، ويستحق أن تجرى عليه هذه الأحكام المخصوصة وليس كذلك الفاسق .

وإن خالفتمونا من جهة المعنى ، وقلتم : إنه يستحق العقاب العظيم ويستحق إجراء هذه الأحكام عليه كالكافر سواء قلنا إن هذا خلاف ما عليه الصحابة والتابعون ، فإنهم اتفقوا على أن صاحب الكبيرة لا يحرم الميراث ولا يمنع من المناكحة والدفن فى مقابر المسلمين ، هذا على الجملة .

وإذا أردت تفصيل ذلك : فعليك بسيرة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام فى أهل البغى ، ومعلوم أنه لم يبدأ بقتالهم ولم يتبع مدبريهم ، وكذلك لم يسمهم كفرة .

---

(١) شرح جوهرة التوحيد ص ٢٢٥ .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٧١٢ .

ولهذا فإنه لما سئل عليه السلام عنهم : أكفارهم ؟ قال : من الكفر فرّوا فقالوا : أمسلمين هم ؟ قال : لو كانوا مسلمين ما قاتلناهم ، كانوا إخواننا بالأمس بغوا علينا ، فلم يسمّهم كفاراً ولا مسلمين ، وإنما سمّاهم بغاة ، وقوله عليه السلام – حجة ، غير أن الاحتجاج به على الخوارج غير ممكن ، فإنهم ربما يكفرونه ، وربما يتوقفون فى إسلامه .

وأحد ما يدل على أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى كافرٌ ، آية اللعان (١) ، فإن اللعان إنما ثبت بين الزوجين فلو كان القذف كفراً ، لكان لابد من أن يخرج أحد الزوجين بفسقه عن الإسلام فتنقطع بينهما عصمة الزوجية ، فلا يحتاج إلى اللعان ، فكأنه لم يشرع بين الأجنبية ، وإنما يجرى بين الزوجين .

فصحَّ بهذه الجملة : «أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى كافراً ، ولا يجوز أن يجرى عليه أحكام الكفرة» (١) .

ومن المعروف أن الخوارج يعتبرون أن كل من خالفهم فى عقيدتهم ومبادئهم فهو كافر بالإضافة إلى أن كل مرتكب لكبيرة فهو كافر فى رأيهم قياساً على فهمهم الخاطىء لقول الله تعالى : (ومن يكفر بالإيمان فقط حبط عمله وهو فى الأخرة من الخاسرين) [المائدة :٥] . وقوله تعالى (إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفوراً) .

وقوله (وهو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فلم يجعل الله بين الفكر والإيمان منزلة ثالثة فى رأيهم .

يقول الخوارج «ومن كفر وحبط عمله فهو مشرك والإيمان رأس الأعمال ، وأول الفرائض فى عمل ، ومن ترك ما أمره الله به فقد حبط عمله وإيمانه ، ومن حبط عمله فهو بلا إيمان ، والذى لا إيمان له مشرك كافر (٢) .

---

(١) وهى قول الله تعالى فى سورة النور (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرؤ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) ٦ : ٩ النور .

(٢) فكيف يستحق ختنا رسول الله ﷺ (عثمان وعلى) أن يطلق عليهما أحد لفظ الكفر وهما لم يرتكبا كبيرة من الكبائر !!

يقال لهم أى : [للخوارج] (١) : «أخطأتم القياس وتركتم طريق العلم ، وذلك أن الله عز وجل بين فى كتابه المحكم أن الفاسق له منزلة بين الإيمان والكفر (٢) بقوله : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) ٤ - النور ، ولم يقل : إنهم مع فسقهم مؤمنون كما قالت المرجئة ، ولا قال إنهم مع فسقهم كفار كما قلتم [يقصد الخوارج] أنتم ، وأثبت لهم اسم الفسق فقط ، فهم فساق لا مؤمنون ولا كافرون كما قال الله عز وجل وأجمعت عليه الأمة ، والأمة مجمعة على اسم الفسق لأهل الكبائر وإنما هو اسم ومنزلة بين الكفر والإيمان أجمعت الأمة على ذلك ، وإنما ذهب من ذهب إلى تكفير أهل الكبائر من أهل القبلة بعد القول بفسقهم ، وكذلك المرجئة إنما سموا أهل الكبائر مؤمنين بعدما سموهم فاسقين لأن الله عز وجل سماهم فاسقين ولم يتهيأ لهم أن يزيلوا اسم الفسق عنهم ، فاجتمعوا على فسقهم ، ثم افترقوا إلى غير ذلك .

ويقال للخوارج أيضاً : «لِمَا صيرتم الكبائر والصغائر شيئاً واحداً والله عز وجل قد فرّق بين الصغائر والكبائر بقوله : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً) ٣١ : النساء ، يعنى من لم يعمل الكبائر ، فإن حاولوا حجة فى تكفير الأمة لم يجدوا . وإن جعلوا الذنوب كلها كبائر لم يجدوا إلى الحجة سبيلاً من عقل ولا سمع» (٣) .

ومن ذلك كله يتضح لنا مدى خطأ الخوارج فى تكفيرهم الأمة وتكفيرهم من قبل عثمان وعلى وأصحاب الجمل . وفى تكفيرهم مرتكبى الكبائر لأن العمل بأوامر الدين جزء من الإيمان عند الخوارج وليس الإيمان الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد عندهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو عند الخوارج كافر . ولذلك نلاحظ أن الخوارج يعتبرون أن من ارتكب معصية خرج من الإسلام إلى الكفر إلا إذا تاب مستندين فى ذلك إلى فهم خاطىء لقول الله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون) المائدة ٤٤ ، وبالنسبة للآية يقول الإمام الفخر الرازى (٤) . فى قوله تعالى :

(١ ، ٢) الملطى : الرد والتنبيه ص ٥٩ وص ٥٠ .

(٣) وفى ذلك نلحظ اتجاه الملطى هنا إلى رأى المعتزلة فى القول بالمنزلة بين المنزلتين .

(٤) التفسير الكبير للرازى جـ ١٢ ص ٥ ، وص ٦ .

(ومن لم يحكم بما أنزلِ الله فئولئك هم الكافرون) فيه مسألتان ...

الأولى : المقصود من هذا الكلام تهديد اليهود فى إقدامهم على تحريف حكم الله تعالى فى حد الزانى المحصن ، يعنى أنهم لمّا أنكروا حكم الله المنصوص عليه فى التوراة وقالوا : إنه غير واجب ، فهم كافرون على الإطلاق ، لا يستحقون اسم الإيمان لا بموسى والتوارة ولا بمحمد والقرآن .

المسألة الثانية : قال الخوارج : كل من عصى الله فهو كافر . وقال جمهور الأئمة : ليس الأمر كذلك ، أما الخوارج فقد احتجوا بهذه الآية وقالوا : إنها تنص فى أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله ، فوجب أن يكون كافرا .

وذكر المتكلمون والمفسرون أجوبة عن هذه الشبهة :

الأول : أن هذه الآية نزلت فى اليهود فتكون مختصة بهم ، وهذا ضعيف لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومنهم من حاول دفع هذا السؤال فقال : المراد ومن لم يحكم من هؤلاء الذين سبق ذكرهم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وهذا أيضاً ضعيف لأن قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله) كلام أدخل فيه كلمة «من» فى معرض الشرط ، فيكون للعموم . وقول من يقول : المراد ومن لم يحكم بما أنزل الله من الذين سبق ذكرهم فهو زيادة فى النص وذلك غير جائز .

الثانى : قال عطاء : هو كفر دون كفر ، وقال طاوس : ليس بكفر ينقل عن الملة كمن يكفر بالله واليوم الآخر ، فكأنهم حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين ، وهو أيضاً ضعيف ، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر من الدين .

والثالث : قال الأنبارى : يجوز أن يكون المعنى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهى أفعال الكفار ، ويشبه من أجل ذلك الكافرين ، وهذا ضعيف أيضاً لأنه عدول عن الظاهر .

والرابع : قال عبد العزيز بن يحيى الكنانى : قوله (بما أنزل الله) صيغة عموم ،

فقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) معناه من أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وهذا حق لأن الكافر هو الذى أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله تعالى ، أما الفاسق ، فإنه لم يأت بضد حكم الله إلا فى القليل ، وهو العمل ، أما فى الاعتقاد والإقرار فهو موافق وهذا أيضاً ضعيف ، لأنه لو كانت هذه الآية وعيداً مخصوصاً بمن خالف حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله تعالى لم يتناول هذا الوعيد اليهود بسبب مخالفتهم حكم الله فى الرجم ، وأجمع المفسرون على أن هذا الوعيد يتناول اليهود بسبب مخالفتهم حكم الله تعالى فى واقعة الرجم ، فيدل على سقوط هذا الجواب .

والخامس : قال عكرمة : قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى . ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية . وهذا هو الجواب الصحيح عند الفخر الرازى .

وقال الإمام الطبرى فى تفسيره [1] «وقد اختلف أهل التأويل فى تأويل الكفر فى هذا الموضع فقال بعضهم بنحو ما قلنا فى ذلك من أنه عنى به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا أحكامه» عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ فى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) وقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) . فى الكافرين كلها . وعن الضحاك نزلت هؤلاء الآيات فى أهل الكتاب وقيل ليست فى أهل الإسلام منها شىء ، إنما هى فى الكفار إلا أن يفعل أهل الإسلام ذلك استخفافاً أو استحلالاً أو جحداً» .

ومن هنا فإننا نرى أن المسلم العاصى مرتكب الكبيرة عند الخوارج لا يصحُّ تكفيره كما يرى الخوارج . فتكفير المؤمن لا يصح لأنه كان بتأويل منهم غير صحيح . وإن موقف القاضى عبد الجبار المعتزلى فى مسألة مرتكب الكبيرة واضح وعميق فيقول : [2] «هذه المسألة تُلقّب بمسألة الأسماء والأحكام . وقد اختلف الناس فيها ، فذهب الخوارج إلى أن

---

(١) المجلد الرابع جـ ٦ ص ١٦٣ باختصار

(٢) شرح الأصول ، الخمسة : ص ١٣٧ : ص ١٤١ باختصار

صاحب الكبيرة كافر . وذهب المرجئة إلى أنه : مؤمن ، وذهب الحَسَنْ البصرى إلى أنه ليس بمؤمن ولا كافر ، وإنما يكون منافقاً ، إلى هذا ذهب عمرو بن عبيد المعتزلى . وذهب واصل بن عطاء المعتزلى إلى أن صاحب الكبيرة ؛ لا يكون مؤمناً ولا كافراً ولا منافقاً ، بل يكون فاسقاً . وهذا المذهب أخذه عن أبى هاشم الجبائى : عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وكان من أصحابه ويقول القاضى عبد الجبار : والمخالف فى هذا الباب لا يخلو ، إما أن يقول : إن صاحب الكبيرة : منافق . وذلك لا وجه له ، لأن المنافق اسم لمن يبطن الكفر ويظهر الإسلام ، وليس هذا حال صاحب الكبيرة ، أو يقول : إنه كافر على ما تقوله الخوارج . والكلام عليه أن نقول : ما تعنى به ؟ أتريد أن حكمه حكم الكافر حتى لا يناكح ولا يورث ولا يدفن فى مقابر المسلمين ، أو تريد أنه يسمى كافراً وإن لم تجر عليه هذه الأحكام ؟ فإن أردت به الأول فذلك ساقط ، لأننا نعلم ضرورة من دين الأمة : أن صاحب الكبيرة ، لا تجرى عليه هذه الأحكام .

وإن أردت به الثانى فذلك لا يصح أيضاً لأن الكفر صار بالشرع اسماً لمن يستحق إجراء هذه الأحكام عليه . فكيف يجوز إطلاقها على من لا يستحقها ؟

وإما أن تقول : أن صاحب الكبيرة . مؤمن على ما تقوله المرجئة . والكلام عليه أن نقول : ما تريد به ؟ أتريد به : أن حكمه حكم المؤمن فى المدح والتعظيم والموالاة من الله تعالى . أم تريد : أنه يسمى مؤمناً ؟ فإن أردت به الأول ، فذلك لا يصح ، لأنه خرق إجماع مصرح فكأننا نعلم من حال الصحابة ، وخاصة من حال على بن أبى طالب - عليه السلام - أنهم كانوا لا يعظمون صاحب الكبيرة ، ولا يوالونه فى الله عز وجل - بل يلعنونه ويستخفون به .

ولهذا فإن أمير المؤمنين - على بن أبى طالب عليه السلام - كان يقول فى قنوته : اللهم العن معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وأبا الأعور السلمى ، وأبا موسى الأشعرى .

وإن أردت به الثانى فذلك لا يصح أيضاً . لأن قولنا : «مؤمن فى الشرع اسم لمن يستحق هذه الأحكام المخصوصة ، فكيف يجرى على من لا يستحقها ؟» .

ومن ذلك نلاحظ أن المعتزلة لا تحكم على المسلم العاصى مرتكب الكبيرة بالكفر بل تلقبه بلقب الفاسق . أو فى منزلة بين المنزلتين وقال أهل السنة إن مرتكب الكبيرة لأنه يقر بوحدانية الله ونبوة الرسول ﷺ فإننا لا نحكم عليه بالكفر وهذا ما نقول به لأن تكفير المؤمن بغير دليل ظاهر من الشرع كفر .

وقد اتضح لنا أن الذى دفعهم إلى القول بتكفير المسلم العاصى الذى لم يتب ، فهمهم غير الصحيح لبعض آيات القرآن مثل قوله تعالى (إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) [الإنسان : ٣] وقوله تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) [آل عمران : ٩٧] .

وأيضاً يعود إلى عدم فهمهم بدقة معنى كثير من الأحاديث النبوية مثل قول رسول الله ﷺ لأبى ذر : «إنك امرؤ فيك جاهلية» البخارى جـ ١ ص ١٢ ، جـ ٨ ص ١٤ .

وقوله ﷺ «إن بينَ الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» (١) . وقوله : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (٢) .

وقوله ﷺ «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» (٣) .

وقوله ﷺ «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» (٤) .

والحق أنه ليس فيما سبق من نصوص قرآنية كريمة ونصوص حديثية شريفة دليل صريح على كفر مرتكب الكبيرة .

فما استدلوا به من الآيات والأحاديث ، محمول على من استحل شيئاً من الكبائر أو

---

(١) أبو داود بنحوه جـ ٢ ص ٢٦ ، والترمذى بنحوه رقم ٢٧٥١ . وقال حديث حسن صحيح .

(٢) البخارى جـ ١ ص ١٥ ، جـ ٨ ص ١٣ ، ومسلم جـ ١ ص ١٥٣ ، الترمذى حديث رقم ٢٧٧٢ وقال حديث حسن صحيح .

(٣) البخارى جـ ٣ ص ١١٨ ، جـ ٨ ص ١٣٧ ومسلم جـ ١ ص ٢٤١ وأبو داود جـ ٢ ص ٤٧٠ . والترمذى رقم ٢٧٦٠ بنحوه وقال حديث حسن صحيح غريب .

(٤) مسلم جـ ١ ص ٢٨٤ – وأبو داود بنحوه جـ ٢ ص ١٨١ . والترمذي حديث رقم ٢٠٦٦ وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه جـ ٢ ص ٢٨٢ .

جحد أمراً معلوماً من الدين بالضرورة كالصلاة والحج بعد استيفاء شروطهما . أو أن المراد صار مشابهاً للكفار فى أفعالهم وإن ظل فى عداد المسلمين كمن يتولى الكفار ، أو يتغلب عليه اليأس من روح الله ، أو يفترى الكذب . إذ أن المؤمن الحق لا ينبغى عليه أن يأتى بشىء من ذلك .

ومعنى وجود بعض خصال الجاهلية فى تصرفات الإنسان وأفعاله ، لا يقتضى ذلك تكفيره أو خروجه من الدين السمح الحنيف ، وإلا حكم رسول الله ﷺ على أبى ذر بالكفر ، وطالبه بالعودة إلى الإسلام لمجرد أنه ضرب عبده أو أساء إليه ، ولم يحكم أحد من العلماء بتكفير من ضرب عبده ... وقد أكد ذلك البخارى فى صحيحه حيث قال : باب المعاصى من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، لقول النبى ﷺ «إنك امرؤ فيك جاهلية» . وقول الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [1] .

وترك الصلاة ، وقتال المسلم ، لا يكفر إلا من استحل فعلها ، ولم ير فى ذلك تهاوناً فى حق الدين . أما عن قول رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» فذلك محمول على استحقاق الدخول : أى لا يستحق دخول الجنة وإن دخلها فبعفو الله تعالى ومغفرته ، أو لا يدخلها مع المتقين ، أو مع غير المتكبرين ، أو لا يدخلها إلا بعد أن يلقى جزاءه على الكبر ويرى ابن قتيبة أن الكلام هنا خرج مخرج الحكم ... أى ليس حكم من كان فى قلبه مثقاف حبة من خردل من كبر أن يدخل الجنة كما تقول فى دار صغيرة لا يدخلها أمير – أى حكمها كذلك . ويجوز أن يدخلها الأمير – أى جرياً على غير العادة [2] .

والله تعالى يقول (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . [النساء : ٤٨] .

ومما يوضح لنا أن المسلم لا يكفر بالمعاصى والكبائر قول الله تعالى : (قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [الزمر : ٥٣] أى ما عدا الشرك الذى بينت آية النساء السابقة أن الله لا

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ١٩ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ١١٧ .

يغفره . قال الإمام النووى رضى الله عنه : «واعلم أن مذهب أهل الحق أن لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب»[١] .

وإننا نلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر ، بل اكتفى بإقامة الحد الشرعى عليه كما فى رجم الزناة .

---

(١) شرح مسلم جـ ١ ص ١٧٠ .

مناقشة رأى الخوارج

فى قولهم أن مرتكبى الكبائر مخلدون فى النار

عرفنا من قبل أن مرتكب الكبيرة عند الخوارج إذا لم يتب من ذنبه فهو كافر . ولقد حكموا عليه أيضاً بالخلود فى النار لكفره . وطبقاً لفهمهم الخاص لبعض آيات القرآن الكريم حكموا على العاصين بالخلود فى النار . واستندوا فى ذلك إلى قول الله تعالى (بلى من كَسبَ سيئةً وأحاطت به خطيئتهُ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ٨١ – البقرة .

والحق أنه كما يقول الفخر الرازى فى تفسيره «اختلفت أهل القبلة فى وعيد أصحاب الكبائر ، فمن الناس من قطع بوعيدهم وهم فريقان ، منهم من أثبت الوعيد المؤبد وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج ومنهم من أثبت وعيداً منقطعاً وهو قول بشر المريسى ، ومن الناس من قطع بأنه لا وعيد لهم وهو قول شاذ ينسب إلى مقاتل بن سليمان المفسر ، والقول الثالث أنا نقطع بأنه سبحانه وتعالى يعفو عن بعض المعاصى ، ولكنا نتوقف فى حق كل أحد على التعيين أنه هل يعفو عنه أم لا ، ونقطع بأنه تعالى إذا عذب أحداً منهم مدة فإنه لا يعذبه أبداً بل يقطع عذابه ، وهذا قول الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة وأكثر الإمامية»[1] .

ويقول الأشعرى عن موقف الشيعة «اختلفت الروافض فى الوعيد ، وهم فرقتان . فالفرقة الأولى منهم : يثبتون الوعيد على مخاليفهم ، ويقولون : إنهم يعذبون ، ولا يقولون بإثبات الوعيد فيمن قال بقولهم ، ويزعمون أن الله سبحانه يدخلهم الجنة ، وإن أدخلهم النار أخرجهم منها ، ورووا فى أئمتهم : أن ما كان بين الله وبين الشيعة من المعاصى ، سألوا الله فيهم فصفح عنهم ، وما كان بين الشيعة وبين الأئمة تجاوزوا عنه ، وما كان بين الشيعة وبين الناس من المظالم شفعوا لهم إليهم حتى يصفحوا عنهم .

الفرقة الثانية منهم : يذهبون إلى إثبات الوعيد ، وأن الله عز وجل يعذب كل مرتكب

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ ٣ ص ١٤٤ ص ١٤٥ .

الكبائر من أهل مقالتهم كان أو من غير أهل مقالتهم ويخلدهم فى النار ... [1] والحقيقة أنه إذا كان موقف جمهور المعتزلة والخوارج فى إثبات الوعيد المؤيد قريب إلى حد ما إلا أن المعتزلة يقولون بقاعدة تسمى «الإحباط والتكفير» ومعناها : أن المكلف إذا فعل طاعات وفعل معاصى وآثاماً . فإذا كانت الطاعات أكبر من المعاصى والآثام سقط عن المكلف جزاء المعاصى والآثام وإذا كانت المعاصى والاثام أكبر من الطاعات سقط عن المكلف جزاء الطاعات . ويستندون فى ذلك إلى قول الله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) [الأنبياء : ٤٧] ولقول الله تعالى (فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمة هاوية) [الزلزلة : ٩٦] وإذا دخل الطائع الجنة وطاعاته أكبر من معاصيه داخل فى درجة على مقدار طاعاته ، ولا يخرج من الجنة أبداً . وإذا دخل العاصى النار ومعاصيه أكبر من طاعاته دخل فى دركة على مقدار معاصيه ، ولا يخرج من النار أبداً» لحديث رسول الله ﷺ «يا أهل الجنة خلود بلا موت» ولدلالة الآيتين : (فأما من ثقلت موازينه» ولا نعى إلا على الثقل والخفة والخلود من أجلهما .

والشيء الذى يختلف فيه المعتزلة . مسألة إذا تساوت طاعات المكلف ومعاصيه . فما جهة الحكم ؟ على من تساوت طاعاته ومعاصيه ؟ لقد اتفقوا على أن المساواة لا تحصل البتة ؟ ثم اختلفوا فى جهة الحكم ، فعند أبى على أن جهة الحكم هى العقل والسمع . وعند ابى هاشم : ان جهة الحكم هي السمع فقط ويشرح ذلك القاضى عبد الجبار فيقول [2] : «فإن قيل : فما قولكم فيمن استويا فى حقه . أكان يجب أن يثاب ويعاقب دفعة واحدة ؟ قيل له : إنهما لا يستويان ولا خلاف فى ذلك بين أبى على وبين أبى هاشم، وإنما الخلاف فى أن ذلك يعلم عقلاً وسمعاً ، أو لا يعلم إلا سمعاً .

فعند أبى على : «أن ذلك يعلم عقلاً وسمعاً . وقال أبو هاشم : لا يعلم إلا سمعاً . فإن الأمة أجمعت على أن لا دار غير الجنة والنار ، فلو تساوت طاعات المكلف ومعاصيه ، لكان لا يخلو من أحد أمرين ، فإما أن يدخل النار وذلك ظلم وإما أن يدخل الجنة ، ثم لا يخلو حاله ، وقد دخل الجنة ، إما أن يثاب وذلك لا يجوز ، لأن إثابة من لا يستحق الثواب

---

(١) مقالات ص ١٢٦ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٢٣ .

قبيح ، والله تعالى لا يفعل القبيح ، وإما أن يتفضل الله عليه كما تفضل على الأطفال والمجانين وذلك مما لا يصح أيضاً . وقد اتفقت الأمة : على أن المكلف إذا دخل الجنة فلابد من أن يميز حاله من حال الوِلْدَان المخلدين ، وعن حال الأطفال والمجانين ، فليس إلا أن نقطع أنه لا تتساوى طاعات المكلف ومعاصيه» .

ويختلفون أيضاً فى مسألة «العوض» (١) فهل العوض على سبيل الدوام ، وهل التسوية حاصلة بين العوض والثواب ، وهل الإحباط والتكفير يدخل فى العوض أم لا يدخل ويهمنا فى هذا الأمر تفسير قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد المعتزلى حين يتحدث عن الإحباط والتكفير فيقول (٢) : «إعلم أن المكلف لا يخلو ، إما تخلص طاعاته ومعاصيه أو يكون قد جمع بينهما . وإذا كان قد جمع بينهما فلا يخلو ، إما أن تتساوى طاعاته ومعاصيه ، أن يزيد أحدهما على الآخر فإنه لابد من أن يسقط الأقل بالأكثر ، وإن شئت أوردت ذلك على وجه آخر فقلت :

إن المكلف لا يخلو ، إما أن يستحق الثواب أو أن يستحق العقاب من كل واحد منهما قدراً واحداً ، أو يستحق من أحدهما أكثر مما يستحق من الآخر . فإن الأقل لابد من أن يسقط بالأكثر ويزول . وهذا هو القول بالإحباط والتكفير على ما قاله المشايخ .

وقد خالفنا فى ذلك كثير من المرجئة ، وعباد بن سليمان الصيمرى ، فإن مذهبه : أن العقوبة لا تزول إلا بالتوبة .

فأما كثرة الطاعات فَمِمَّا لا تأثير لها فى ذلك ، غير أنه يثبت مزية لمن خلط الطاعات بالمعاصى ، لا يثبتها لمن خلصت معاصيه .

ويقص القاضى عبد الجبار خلافاً فى مسألة الإحباط والتفكير بين الشيخين المعتزلين الكبيرين أبى على وأبى هاشم فيقول (٣) : «فإن قيل : إذا كان الشيخان لا يختلفان فى

---

(١) ومعناه . أن الله تعالى يعوض الناس مثلاً إذا فعلوا خيراً فى الدنيا أن يعوضهم عن ذلك الجنة أو غير ذلك من الأعواض والحسنات فى الآخرة .

(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٦٢٣ – ص ٦٢٤ .

(٣) شرح الأصول الخمسة : ص ٦٢٧ إلى ص ٦٢٩ باختصار .

وقوع الإحباط والتكفير ، ففى أى موضع اختلفا فى هذه المسألة قلنا فى موضعين أحدهما [الموازنة] (١) والآخر أن الإحباط والتكفير إذا وقعا ، وقعا فى الطاعة والمعصية ، لأنهما اللذان يصح أن يؤثر أحدهما فى الآخر ، دون الثواب والعقاب اللذين لا يوجدان معاً حتى يصح تأثير أحدهما فى الآخر . وقال أبو هاشم : لا . بل يقعان فى الثواب والعقاب قال : وذلك لأن الذى أوجب القول فى الإحباط والتكفير هو امتناع الجمع بينهما للمنافاة ، والذى امتنع الجمع بينهما إنما هو الثواب والعقاب ، حيث كان أحدهما مستحقاً على سبيل التعظيم والإجلال ، والآخر على سبيل الاستحقاق والنكال دون الطاعة والمعصية . فمعلوم أن الجمع بينهما ممكن غير متعذر ، فيجب أن لا يقع الإحباط والتكفير إلا فى المستحقين على ما ذكرته . واختلفوا أيضاً فى الموازنة . فمن مذهب أبى على : أنه يحسن من الله تعالى أن يفعل به فى كل وقت عشرين جزءاً من العقاب . ولا يثبت لما كان قد استحقه على الطاعة التى أتى بها تأثير ، بعدما ازداد عقابه عليه وقال أبو هاشم : لا بل يقبح من الله تعالى ذلك ولا يحسن منه أن يفعل به من العقاب إلا عشرة أجزاء . فأما العشرة الأخرى فإنها تسقط بالثواب الذى قد استحقه على ما أتى به من الطاعة . وهذا هو الصحيح من المذهب المعتزلى» .

والحقيقة أنه إذا كان قول الخوارج وقول المعتزلة فى الوعيد واحداً ومتشابهاً إلى حد كبير «لأنهم يقولون إن أهل الكبائر الذين يموتون على كبائرهم فى النار خالدون فيها مخلدون ، غير أن الخوارج يقولون : إن مرتكبى الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذبون عذاب الكافرين ، والمعتزلة يقولون : إن عذابهم ليس كعذاب الكافرين» (٢) .

والواقع أننا نقول إن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة ليس بكافر ولا يعذب عذاب الكافرين ولا يخلد فى النار .

لأن هناك أحاديث صحيحة صريحة تؤكد هذه الحقائق من ذلك قول رسول الله ﷺ : «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى : (أخرجوا من كان فى قلبه

---

(١) الموازنة : وصورتها أن يأتى المكلف بطاعة استحق عليها عشرة أجزاء من الثواب ، وبمعصية استحق عليها عشرين جزءاً من العقاب .

(٢) مقالات : ص ٢٠٤ .

مثقال حبةمن خردل من إيمان) فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون فى نهر الحيا [المطر] أو الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية» (١) .

وروى أنس عن النبى ﷺ قال : «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير» ... وفى رواية «من إيمان» (٢) .

وروى مسلم فى صحيحه بسنده - عن أبى ذر قال : أتيت النبى ﷺ وهو نائم ، عليه ثوب أبيض ، ثم أتيته فإذا هو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ ، فجلست إليه ، فقال : ما مِن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ... قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ... قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ ... قال : وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً) . ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر ... قال : فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر (٣) .

ولأدل على رأينا ما ذكر فى شأن شفاعة رسول الله ﷺ وأن هذه الشفاعة تشمل كل من مات موحداً .

ففى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ... «... ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيز [أى يمضى عليه ويقطعه] ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل . ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان [نبات له شوك عظيم من كل الجوانب] ... هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله . تخطف الناس بأعمالهم فمنهم المؤمن ، بقى بعمله . ومنهم المجازى حتى ينجى ، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، يأمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول :

---

(١) رواه البخارى جـ ١ ص ١٠ .
(٢) رواه البخارى جـ ١ ص ١٤ . والترمذى حديث رقم ٢٧٢٠ .
(٣) شرح مسلم جـ ١ ص ٢٨٦ .

«لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار ... يعرفونهم بأثر السجود ... تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود ... حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا [احترقوا] ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون منها كما تنبت الحبة في حميل السيل [أي ما يجيء به السيل من طين وغرين . والتشبيه في سرعة النمو وحسن المنظر وطراوة الجسم] . ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة فيقول : أي رب : اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني [آذاني وأهلكني أو غير صورتي] ريحها وأحرقني ذكاؤها [لهيبها] ... فيدعو الله ما شاء الله يدعوه ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : (هل عسيت أن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره ، فيقول لا أسألك غيره) ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء له أن يسكت ثم يقول : أي رب : قدمني إلى باب الجنة ... فيقول الله له : (أليس قد أعطيت عهدك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيك ، ويلك يا ابن آدم ... ما أغدرك) فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول له : (فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ، فيقول : لا - وعزتك) فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام على باب الجنة انفهقت [انفتحت] له الجنة فرأى ما فيها من الخير والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول : أي ربِّ أدخلني الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى له : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ، ويلك يا ابن آدم ... ما أغدرك ... فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه ، فإذا ضحك الله منه قال : ادخل الجنة ، فإذا دخلها قال الله له : تمن ، فيسأل ربه ويتمنى حتى أن الله ليذكره من كذا وكذا ... حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى : ذلك لك ومثله معه - قال عطاء بن زيد ، وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة . لا يرد عليه [أي أنه وافقه فيما رواه] من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله قال لذلك الرجل : ومثله معه ... قال أبو سعيد وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة . قال أبو هريرة : ما حفظت إلا قوله : ذلك لك ومثله معه .

... قال أبو سعيد : أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ - قوله : ذلك لك وعشرة

أمثاله – قال أبو هريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا» [١] .

ومن هذا كله يتضح لنا أن المؤمن لا يخلد في النار – كما يرى الخوارج والمعتزلة الذين اعتبروا أن مرتكب الكبيرة لا يعد مؤمناً وإن كان يعد مسلماً ، لكنه يخلد في النار ما لم يتب توبة نصوحاً ويكون عذابه أخف من عذاب من لم يؤمن بالله ورسوله .

ذلك أن الخوارج والمعتزلة يعدون العمل جزءا من الإيمان ، والأشاعرة والماتريدية لا يعدّون العمل جزءاً من الإيمان ولذلك لا يخرج عن حظيرة الإيمان من يرتكب المعاصي ، وإن كان له حساب وعقاب وقد يتغمده الله برحمتهِ . ولهذا فإن الماتريدي [٢] يرى أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ولو مات من غير توبة . كذلك دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب كما يقول ابن تيمية نذكرها بإيجاز [٣] .

أحدها : التوبة لقول الله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) .

الثاني : الاستغفار لقول الرسول «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة

---

(١) رواه البخاري جـ ٨ ص ١٠١ – ومسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٢٠ و ٢٥ .

(٢) يقول الماتريدي : «إن الله تعالى قد بين في القرآن الكريم أنه لا يجزي على السيئة إلا بمثلها فقال تعالى (من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) ولا شك أن من لا يكفر بالله ولا يشرك به يكون ذنبه دون ذنب الكافر والمشرك ، وقد جعل الله تعالى التخليد عقوبة الشرك والكفر ، فلو عذب صاحب الكبيرة مع وجود التصديق مثل عذاب الكافر ، لكانت عقوبته زائدة على قدر ذنبه وهذا خلف في الوعد ، والله لا يظلم العباد ولا يخلف الوعد ، ثم المساواة في الجزاء بين الكافر والمؤمن العاصي مما يخالف حكمة الله تعالى وعدله ، لأن المؤمن العاصي قد جاء بما هو أعظم الخير وهو الإيمان ، ولم يأت بأقبح الشر وهو الكفر ، فلو خلده الله في النار أبداً لجعل جزاء أقبح الشر بدل ثواب أفضل الخيرات ... ومقتضى العدل والحكمة الجزاء بالمثل لا بالزيادة إلا في الثواب» . والحق في أصحاب الذنوب من المؤمنين تفويض أمرهم إلى الله تعالى ، إن شاء عفا عنهم فضلاً منه وإحساناً ورحمة ، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم ، فلا يخلدون في النار . فيكون أهل الإيمان بين الرجاء والخوف ، فيجوز له تعالى العقاب على الصغيرة والعفو عن الكبيرة كما قال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) صدق الله العظيم» .

(٣) الإيمان الأوسط لابن تيمية ص ٢٩ : ص ٤٢ باختصار نقلاً عن قواعد المنهج السلفي للدكتور مصطفى حلمي ص ١٨٩ ، ص ١٩٠ .

مرة» فإن هذا الاستغفار إذا كان من التوبة مما يحكم به ، عام فى كل تائب ، وإن لم يكن مع التوبة فيكون فى حق بعض المستغفرين الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب .

الثالث : الحسنات الماحية يقول تعالى : (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال صلى الله علية وسلم «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» وقال «الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفى الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» .

الرابع : الدافع للعقاب . دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه» ... وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً ، إلا شفعهم الله فيه» رواهما مسلم .

الخامس : ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ، ونحوها فقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) .

السادس : شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم وغيره فى أهل الذنوب يوم القيامة ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» .

السابع : المصائب التى يكفر الله بها الخطايا فى الدنيا كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولاهم ولا حزن ولا غم ولا أذى – حتى الشوكة يشاكها – إلا كفر الله بها من خطاياه» .

التاسع : أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها .

العاشر : رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد . ومن ذلك كله يتضح لنا مدى خطأ الخوارج ومن نحا نحوهم فى قولهم أن مرتكب الكبيرة لا يعد مؤمنا وإن كان

يعد مسلما لكنه يخلد فى النار ما لم يتب توبة نصوحاً ويكون عذابه أخف من عذاب من لم يؤمن بالله ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك أن رحمة الله واسعة وأبواب عفوه وغفرانه كثيرة وعقوبة الذنوب تزول عن العبد بطرق كثيرة أشرنا إليها (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم [٥٣ : الزمر] صدق الله العظيم .

مناقشة الخوارج فى قولهم بأن الإمامة والخلافة ليس بلازم أن تكون فى قريش

من المعروف أن الخوارج يرون أن الإمامة والخلافة ليس بلازم أن تكون فى قريش بل يجوز أن يكون الإمام من قريش أو من غيرها [(١)] . والخوارج يرون أن الخلافة يجب أن

---

(١) خالف الخوارج فى ذلك أهل السنة القائلين بأن الخلافة فى قريش ، والشيعة القائلين بتعيين الخلافة فى بيت عليّ وآله .

ويجدر بنا الإشارة إلى أن طرق اختيار الخلفاء فى الإسلام قد تم عن طريق الانتخاب المباشر وعن طريق العهد لمن بعد الخليفة ، وطريقة ترشيح عدد من الأكفاء يختار من بينهم واحداً فطريق اختيار أبى بكر الصديق الانتخاب المباشر من المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة .

والطريقة الثانية طريقة العهد لمن بعده . وقد حصل ذلك فى انتخاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لاختيار أبى بكر له ، وأخذه البيعة له من الناس . والطريقة الثالثة أن يرشح الخليفة عدداً يختارون – هم – من بينهم واحداً يبايعه الناس وذلك الذى فعله الخليفة عمر بن الخطاب . وبهذا تم اختيار عثمان بن عفان رضى الله عنه من بين الستة الذين رشحهم عمر رضى الله عنه . والحقيقة أنه لم يرد نص أو دليل قاطع إلى من يكون الخليفة بعد رسول الله سوى إشارة إلى أن النبى أمر «أبا بكر» بأن يؤم المسلمين والرسول فى مرض موته فاتخذ بعض المسلمين من هذا إشارة إلى إمامته العامة للمسلمين وقالوا : «لقد رضيه رسول الله لديننا ، أفلا نرضاه لدنيانا» ولأن أمور الدنيا وسياستها غير أمر العبادة فالإشارة لم تكن كافية وإن كانت تحمل الإرهاصة لرضا الرسول عن الخليفة أبى بكر الصديق .

وإن القرآن الكريم كما يقول الشيخ أبو زهرة فى «تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٢٤ وص ٢٥» : قد وضع للحكم الإسلامى أصولاً ثلاثة وهى : العدالة ، والشورى ، والطاعة لأولياء الأمر فيما أحب المؤمن وكره . إلا أن يأمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .

وإن الآيات الدالة على «العدل» ثابتة قائمة لا مجال للشك فى دلالتها القوية القاطعة وأما «الشورى فقد أمر بها النبى ، وهو الذى كان يخاطب من السماء (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى) ، وقد قال تعالى فى أمر النبى بالشورى : (وشاورهم فى الأمر) وجعل الشورى أصلا عاماً لكل شؤون المسلمين فيما لا يرد فيه نص ، فقال تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) و«الطاعة» قد ثبتت بنص القرآن الكريم فقد قال تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . ولقد قال النبى «على المرء المؤمن السمع والطاعة إلا أن يؤمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة» . وبهذه الأصول الثلاثة بينت الشريعة الدعائم التى يقوم عليها الحكم الإسلامى ، وإن الشورى التى هى أساس الاختيار للحاكم ومراقبة سلطانه ومدى ما له من حقوق – تختلف باختلاف البيئات والشعوب والأحوال العارضة للناس – فتعيين طريق خاص لها غير سائغ ولا مقبول ولذلك لم يعين النبى لها طريقاً خاصة ولا نظاماً =

تحكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكم ولا يرون إمامة الجائر .

وقد استدل الخوارج على قولهم بعدم اشتراط الإمامة فى قريش بذكرهم بأن القرآن الكريم لا يشير إلى إمام من قبيلة خاصة أو نسل خاص ، بل يشير إلى طاعة ولىّ الأمر إذا أمر بشرع الله تعالى وحكم وعدل . ومن آيات القرآن الكريم قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعاً بصيراً . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) النساء ٥٨ – ٥٩ . ووجه الاستدلال عند الخوارج : أن الله تعالى أمر أن يحكم الحاكم بالعدل ولم يشترط أن يكون الحاكم من نسل معين ، أو من قبيلة خاصة ، وأمر بطاعة ولىّ الأمر ولم يشترط أن يكون من قريش أو من غير قريش . وقال الخوارج : إذا قال غيرنا بأن قول الرسول ﷺ «الأئمة من قريش» مخصص لعموم النص القرآنى السابق ، ومقيد للعموم المستفاد منه ، قلنا [أى الخوارج] : «قد يلزمنا قولكم إذا لم يرد على الرسول ﷺ ما يوافق النص القرآنى السابق ، أما وقد روى عنه ما يدل على أنه ليس بلازم أن يكون الإمام قرشياً ، فإن دليل التخصيص والتقييد غير ملزم لنا» . لقد روى مسلم فى صحيحه : عن أم الحصين – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن أمر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله ، فاسمعوا له وأطيعوا» .

= ثابتاً ، لاختلاف أمثل النظم باختلاف الشعوب . وليس الحاكم المختار اختياراً شورياً مطلقاً فى حكمه بل هو مقيد أولاً بالأحكام الدينية ، وأن تنفيذها أول مقاصد الحكم ، وهو ثانياً مقيد بالشورى ، فلابد أن يكون بجواره من يشير عليه . بل من يلزمه جانب الصواب .

ويرى القرطبى فى تفسيره للآية ٣٠ من سورة البقرة (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) أن شروط الإمامة أن يكون قرشياً ، وأن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً مجتهداً ، لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث . وأن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش ، وحماية البيضة ، وردع الأمة والانتقام من الظالم ، وأن يكون ممن لا تلحقه رقة فى إقامة الحدود ، ولا فزع من ضرب الرقاب ، وأن يكون حرا ، مسلماً ، ذكراً ، وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً ، وأن يكون سليم الأعضاء ، بالغاً ، عاقلاً وأن يكون عدلاً» .

وفى الحديث أيضاً : «وإن تأمّر عليكم عبد حبشى» وأيضاً : «ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع . فإن جاء آخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر»(١) فإن قول رسول الله ﷺ : «ومن بايع إماماً» يدل على أى إمام عادل سواء كان قرشياً أو غير قرشى (٢) .

والحقيقة أنه بالنسبة للسمع والطاعة للعبد المجدع الأطراف ... فقد قيل «إن ذلك فى غير الإمام من الحكام جمعاً بين الأدلة ... أو يقال : إن ذلك فيما إذا تغلب غير القرشى على القرشى ... فتقدم مصالح المسلمين ورعاية أمرهم واستمرار أمنهم على مراعاة هذا الشرط وأنه قال : الإمامة فى قريش ، ما لم يمنع من ذلك مانع من غلبة غيرهم عليها ، وسيطرتهم على شؤون الحكم ، وضاعت عصبيتهم ، ووهنت شوكتهم» (٣) . والرسول ﷺ يقول «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم» (٤) .

ويقول القاضى عياض «اشتراط كون الإمام قرشياً مذهب العلماء كافة ، وقد عدوها فى وسائل الإجماع ولم ينقل عن أحدٍ من السلف فيها خلاف ، وكذلك من بعدهم فى جميع الأمصار ، ولا اعتداد بقول الخوارج ومن وافقهم من المعتزلة لما فيه من مخالفة المسلمين» (٥)

وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «الناس تبع لقريش

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ردّ عليهم أهل السنّة والجماعة ، والمعتزلة والشيعة ، واتفقت آراؤهم على القول بوجوب أن يكون الإمام قرشياً .

فالشيعة يرون أن الإمامة لا تخرج من أولاد علىّ وهو قرشى - وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده .

ومعظم المعتزلة أيضاً يقول قاضى القضاة عبد الجبار فى شرح الأصول الخمسة ص ٧٥١ وص ٧٥٣ : «اعلم أن الإمام يجب أن يكون منصب مخصوص ، خلاف ما يحكى عن طائفة من الخوارج ... وإن المنصب المخصوص لابد من اعتباره لدلالة الإجماع ، فإن أبا بكر لمّا ادعى بحضرة الجماعة : أن الأئمة من قريش لم ينكر عليه أحد» .

وأهل السنة والجماعة قالوا إن حديث «الأئمة من قريش» حديث متواتر مخصص للعموم . وهو حديث صحيح على شرط البخارى .

(٣) شرح المقاصد للتفتازانى جـ ٢ ص ٢٧٥

(٤) رواه الطبرانى

(٥) فتح البارى لابن حجر

فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم ، [١] وعن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان» [٢] .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الناس تبع لقريش فى الخير والشر» [٣] .

وروى الحاكم - بسنده عن علىّ - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الأئمة من قريش : أبرارها أمراء أبرارها ، وفجارها أمراء فجارها ، ولكل حق فآتوا كل ذى حق حقه - وإن أمرت عليكم عبداً حبشياً مجدعاً فاسمعوا له وأطيعوا» وهذه نصوص عامة لم تقيد خلافة قريش إلا بقيد الإسلام والمحافظة على الدين ولكن هناك نصوص حديثية أخرى قد قيدت هذه النصوص العامة فقيدتها بشرط إقامة الدين .

روى البخارى بسنده عن جبير بن مطعم ، أنه بلغ معاوية ، وهو عنده فى وفد من قريش ، أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان ، فغضب ، فقام ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال :

«أما بعد : فإنه بلغنى أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله ، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ ، وأولئك جهالكم فإياكم والأمانى التى تضل أهلها ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن هذا الأمر فى قريش ، لا يعاديهم أحدُ إلاّ كبَّه الله على وجهه ، ما أقاموا الدين» [٤] .

ومعنى إقامة الدين نتلمسه فى حديث أبى برزة : روى أبو برزة قال : قال رسول الله ﷺ «الأمراء من قريش «ثلاثاً» - ما فعلوا ثلاثاً - ما حكموا فعدلوا ، واسترحموا فرحموا ، وعاهدوا فوفوا» [٥] وقال الإمام ابن حجر فى فتح البارى [٦] جاءت الأحاديث - أى فى حق الولاة من قريش - على ثلاثة أنحاء :

---

(١) البخارى جـ ٥ ص ١٤٣ ، ومسلم جـ ١٢ ص ١٩٩ .

(٢) البخارى جـ ٥ ١٤٣ ، ومسلم جـ ٩ ص ٥٢ . ومسلم جـ ١٢ ص ٢٠١ . بشرح النووى .

(٣) مسلم جـ ١٢ ص ٢٠٠ بشرح النووى .

(٤) البخارى جـ ٥ ص ١٤٣ ، جـ ٩ ص ٥٢ .

(٥) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح خلا سكين بن عبد العزيز وهو ثقة : مجمع الزوائد جـ ٥ ص ١٩٣ .

(٦) فتح البارى جـ ١٦ ص ٢٣٣ .

١ - وعيدهم باللعن إذا لم يحافظوا على المأمور به كما فى حديث الأمراء من قريش ما فعلوا ثلاثاً ...» .

وفيه : من لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (١) وليس فى هذا ما يقتضى خروج الأمر عنهم .

٢ - وعيدهم بأن يسلط عليهم من يبالغ فى أذيتهم : «أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه فتلحون كما يلحى القضيب» (٢) [أى تلحون كما تلحى هذه الجريدة يشير إلى جريدة فى يده] .

وليس فى هذا أيضاً تصريح بخروج الأمر عنهم وأن كان فيه إشعار به .

٣ - الإذن فى القيام عليهم وقتالهم ، والإيذان بخروج الأمر عنهم : أخرج أحمد بسند جيد عن النبى ﷺ قال : «كان هذا الأمر فى «حمير» ، فنزعه منهم وصيره فى قريش وسيعود إليهم» .

ومن أوضح الأحاديث الشريفة التى يستشم منها جواز الخروج عليهم إذا لم يستقيموا مع الدين ، ما روى عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإذا لم يفلعوا فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا حضراءهم ... فإن لم تفعلوا فكونوا حينئذ زارعين أشقياء تأكلون من كدّ أيديكم (٣) [أى أن الخنوع لهم إذا لم يستقيموا لا يتناسب مع عظمة الإسلام وعزة المسلمين وكرامتهم وهو سبيل إلى الإنحلال والتدهور وهذا ما حدث بعد ذلك] .

لكن فى حالة عدم وقوع ما يخرجهم عن إقامة الدين فالأمر لهم لحديث «الأئمة من قريش» .

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبرانى ورجال أحمد ثقات ـ مجمع الزوائد جـ ٥ ص ١٩٣ .

(٢) مسند الشافعى ص ٩٤ وهو حديث مرسل عن عطاء بن يسار .

(٣) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجال الصغير ثقات مجمع الزوائد جـ ٥ ص ١٩٣ .

ولقد أصر عليه الصحابة في إجماعهم مع أبي بكر على أن الأمر لا يكون إلا لهذا الحي «قريش» ، واعتبر الخوارج مبتدعين في قولهم بغير ذلك ... وقد روى البخاري عن معاوية أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين» .

لكن الحق الذي نرتضيه أن هذه النصوص حين نجمعها مع الآثار الأخرى تدل على طلب الأفضلية لا طلب الصحة . لأنه روى في الصحيحين عن أبي ذر أنه قال : «إنّ خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع ، وإن ولي عليكم عبد حبشي مجدع الأنف» وإن النصوص في مجموعها [1] «لا تستلزم أن تكون الإمامة في قريش وأنه لا تصح ولاية غيرهم ، بل إن ولاية غيرهم صحيحة بلا شك ، ويكون حديث «الأمر في قريش» من قبيل الإخبار بالغيب كقول النبي ﷺ : «الخلافة بعدي ثلاثون ثم تصير ملكاً عضوضاً» . أو يكون من قبيل عادل يقيم أحكام الله إلا النجدات من الخوارج فإنهم قالوا : لا يلزم على الناس فرض الإمامة ، وإنما عليهم أن يتقاضوا الحق . فكان من مبادىء نجدة بن عامر الحنفي [2] «لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتقاضوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه ، فأقاموه جاز» [3] .

وقد رد عليهم ابن حزم قائلاً «وقول هذه الفرقة ساقط . ويكفي من الرد عليه وإبطاله ، إجماع كل من ذكرنا على بطلانه . والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام . من ذلك قول الله تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء : ٥٩] وقول الله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) [البقرة : ٢٨٦] . فوجب اليقين : بأن الله تعالى لا يكلف الناس ما ليس في بنيتهم واحتمالهم .

وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته : أن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال والجنايات والدماء والنكاح والطلاق ، وسائر الأحكام كلها ، ومنع الظالم

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٩١ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٣) قال الأشعري : قال الناس كلهم إلا «الأصم» : لابد من إمام . وقال «الأصم» : لو تكاف الناس عن التظالم لاستغنوا عن الإمام» مقالات جـ ٢ : ص ١٣٣ .

وإنصاف المظلوم ، وأخذ القصاص على تباعد أقطارها وشواغلهم ، واختلاف آرائهم وامتناع من تحرى فى كل ذلك : ممتنع ، غير ممكن . إذ قد يريد واحد أو جماعة أن يحكم عليهم إنسان ، ويريد آخر أو جماعة أخرى أن لا يحكم عليهم . إما لأنها ترى فى اجتهادها خلاف ما رأى هؤلاء ، وإما خلافاً مجرداً عليهم . وهذا الذى لابد منه ضرورة . وهذا مشاهد فى البلاد التى لا رئيس لها . فإنه لا يقام هناك : حكم حق ، ولا حد . حتى قد ذهب الدين فى أكثرها .

فلا تصح إقامة الدين إلا بالإسناد إلى واحد ، أو إلى أكثر من واحد إذ لابد من أحد هذين الوجهين ، فإن الاثنين فصاعداً بينهما أو بينهم ما ذكرنا : لا يتم أمر البتة ، فلم يبق وجه تتم به الأمور ، إلا الإسناد إلى واحد ، فاضل عالم حسن السياسة ، قوى على الإنفاذ إلا أنه وإن كان بخلاف ما ذكرنا ، فالظلم والإهمال معه أقل منه مع الاثنين فصاعداً وإن ذلك كذلك ففرض لازم لكل الناس أن يكفوا من الظلم ما أمكنهم إن قدروا على كف كله ، لزمهم ذلك ، وإلا فكف ما قدروا على كف منه ، ولو قضية واحدة» [١] .

هكذا فإن أهل السنة والجماعة يقولون بوجوب نصب إمام ، كما يقولون كذلك بأنه لا يجوز أن تخلوا الأرض من إمام حتى يعقد لواحد . ويوافقهم فى ذلك الرأى المعتزلة والخوارج – عد النجدات – والمرجئة . لكن الشيعة يقولون بأن الأرض لا تخلو من إمام ظاهر أو مستتر . والقاضى عبد الجبار يقول بأنه لا يخلو الزمان عن إمام لكن يفرق بين رأى المعتزلة ورأي الشيعة الإمامية فى ذلك فيقول : [٢] «إعلم أن من مذهبنا : أن الزمان لا يخلو عن إمام ، ولسنا نعنى به أنه لابد من إمام متصرف فالمعلوم أنه ليس . وإنما المراد به : ليس يجوز خلو الزمان ممن يصلح للإمامة» [٣] .

وتبقى مسألة أخرى وهى أن الخوارج يقولون بجواز الخروج على الإمام الجائر

---

(١) الفصل لابن حزم ص ٨٧ وص ٨٨ .

(٢) معنى ذلك أنه يختلف مع الشيعة فى قولهم بإمام غائب منتظر ، له تصرف فى الكون ، وإن كان غائباً مستتراً .

(٣) كما نعلم فإن الإمامة عند الشيعة كما يقول ابن خلودن فى مقدمته «هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبى اغفالها وتفويضها ، إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً عن الكبائر والصغائر وأن علياً بن أبى طالب هو الخليفة المختار – المنصوص عليه – من النبى ﷺ» .

بالسيف «فالسيف : فإن الخوارج تقول به وتراه ، إلا أن «الإباضية» لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور ، ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأى شىء قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف [١] .

ويقول الأشعرى اختلف الناس فى السيف على أربعة أقاويل :

١ – فقالت «المعتزلة» و«الزيدية» و«الخوارج وكثير من «المرجئة» : ذلك واجب إذا أمكننا أن نزيل بالسيف أهل البغى ونقيم الحق . واعتلوا بقول الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) المائدة : ٢ . وبقوله (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) [الحجرات : ٩] . واعتلوا بقول الله عز وجل : (لا ينال عهدى الظالمين) [البقرة : ١٢٤] .

٢ – وقالت «الروافض» بإبطال السيف ، ولو قُتلت ، حتى يظهر الإمام فيأمر بذلك ...

٣ – وقال «أبو بكر الأصم» ومن قال بقوله : السيفُ إذا اجْتَمع على إمام عادل يخرجون معه فيزيل أهل البغى» .

٤ – وقال قائلون : السيف باطل ، ولو قُتلت الرجال وسُبيت الذرية ، وإن الإمام قد يكون عادلاً ويكون غير عادل ، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقا ، وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه ، وهذا قول أصحاب الحديث» [٢] .

ويقول الإمام القرطبى [٣] : «إذا نصب الإمام ، ثم فسق بعد انبرام العقد . قال الجمهور : إنه تنفسخ له إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم ، لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقام الحدود واستيفاء الحقوق ، وحفظ الأموال ... وقال آخرون لا ينخلع إلا بالكفر ، أو بترك الصلاة ، أو بترك شىء من الشريعة . لقوله ﷺ فى حديث عبادة بن الصامت قال : «بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق : أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم» متفق عليه وعن أم المؤمنين أم

---

(١) مقالات جـ ١ ص ١٨٩ .

(٢) مقالات جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٧١ .

سلمة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال : «إنه قال : «إنه يستعمل عليكم أمراء ، فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ . ومن أنكر فقد سلم . ولكن من رضى وتابع . قالوا يا رسول الله : ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة» رواه مسلم .

فطاعة الإمام مشروطة ومقيدة بما إذا لم يأمر بمعصية قال رسول الله ﷺ «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» .

وعن على رضى الله عنه قال : بعث النبى ﷺ سرية ، وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبى ﷺ أن تطيعونى ؟ ... قالوا : بلى . قال : عزمت عليكم لما جمعتم حطباً ، وأوقدتم ناراً ، ثم دخلتم فيها ... فجمعوا حطباً فأوقدوا . فلمّا هموا بالدخول فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض . قال بعضهم : إنماتبعنا النبى ﷺ فراراً من النار ، أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار ، وسكن غضبه ، فذكر للنبى ﷺ فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً ، إنما الطاعة فى المعروف» (١) ... وفى رواية «لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف» (٢) .

ومع ذلك فإن أصحاب الحديث يرون أن الامتناع عن طاعة الإمام فى المعصية لا يبيح الخروج عليه أو إثارة القلاقل والفتن والثورات بين جماعة المسلمين بسبب معصيته أو أمره بالمعصية فالخروج على الأئمة يجب فقط إذا ارتدوا عن الدين أو منعوا من إقامة الشعائر كالصلاة ونحوها - أما ما عدا ذلك فالخروج عليهم عند أهل الحديث لا يجوز .

عن عبيدة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : (دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان مما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة ،فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ... قال : «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهاناً» (٣) .

وعن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ . قال : «خيار أئمتكم الذين تحبونهم

---

(١) البخارى جـ ٩ ص ٥٢ وص ٥٣ .
(٢) مسلم جـ ١٢ ص ٢٢٧ بشرح النووى .
(٣) مسلم جـ ٢ ص ٢٢٨ ، والبخارى جـ ٩ ص ٦٤ بنحوه .

ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم ، ~~وشرار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم~~ وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم – قيل يا رسول الله : أفلا ننابذهم بالسيف ؟ فقال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة ... وإذا رأيتم من ولايتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا ولا تنزعوا أبداً من طاعة» (١) .

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس ... قال قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك ، وأخذ مالك فاسمع وأطع» (٢) .

ولذلك فإنه حرصاً على وحدة الأمة وعدم اضطرابها وذيوع الإثارات والفتن فإن أصحاب الحديث لا يجوزون الخروج على الإمام مادام لم يخرج عن الدين ويرتد أو يعطل شعائره ويمنع من إقامتها كالصلاة . أما ما عدا ذلك فالخروج على الأئمة لا يجوز . وعندهم أن من يخرج على الأمة لغير هذين السببين [الارتداد عن الدين أو تعطيل شعائره] يعد مرتكباً لمحرم لحديث رسول الله ﷺ

«من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية» (٣) .

وقال ﷺ (٤) :

«من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة ، فمات . فمات ميتة جاهلية ... ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقتل . فقتلة جاهلية ... ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفي لذي عهدٍ ،

---

(١) الدارمي حديث رقم ٢٨٠٠ ، مسلم جـ ١٢ ص ٢٣٩ بشرح النووي .
(٢) مسلم جـ ١٢ ص ٢٣٩ .
(٣) البخاري جـ ٩ ص ٥٢ .
(٤) مسلم جـ ١٢ ص ٢٣٨ بشرح النووي .

فليس منى ولست منه» (١) .

وبعد ــ ففى ختام حديثى عن الخوارج أستطيع أن أقول إن من أهم مبادىء الخوارج حكمهم على من خالفهم بالكفر ، وجواز قتله ، كما حدث فى قتلهم لعبد الله بن خباب بن الأرت وغيره . وقولهم بتجويز الإمامة فى قريش وغير قريش ، وإنكارهم تحكيم الرجال وادعائهم أنه كفر «ويجمعهم القول بالتبرى من عثمان وعلى رضى الله عنهما ويقدمون ذلك على كل طاعة ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك ، ويكفرون أصحاب الكبائر ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً (٢) . وهم يردون السنّة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم فلا يرجمون الزانى ولا يرون للسرقة نصاباً (٣) .

والحقيقة أن تطرف فكرهم أساء إليهم كثيراً مما جعلهم يعجزون عن تحقيق مبادئهم وأفكارهم ، فمثلاً مسألة تكفيرهم لعلى وعثمان وأصحاب الجمل جعلهم فى موضع العداء من المسلمين .

«وبسبب تكفيرهم مرتكبى الكبائر ، انقسموا على أنفسهم أشد الانقسام فى كثير من المسائل الفقهية ، واعتبرت كل فرقة ما عداها مارقة ، وعاملت أنصارها معاملة الكفار فى استباحة الدماء واستحلال الأموال والذرارى» (٤) .

والحقيقة أن إدراك الخوارج للنصوص الدينية كان إدراكاً ظاهرياً إلى حد كبير ، كما كان إدراكاً سطحياً إلى حد أكبر (٥) «وإن هذا الإدراك كان يصاحبه إخلاص لما عرفوه من الدين على حسب فهمهم له ، وأن إخلاصهم لعقائدهم الدينية جعلهم ينكرون على كل من

---

(١) ولهذا فإن خروج الخوارج على عثمان ثم على علىّ رضى الله عنهما لم يكن خروجاً صحيحاً لأنهما رضى الله عنهما لم يرتدا عن الدين أو يعطلا شعائره .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٠٦ تحقيق رحمه الله رحمة واسعة الدكتور بدران .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ١٣ ص ٤٨ .

(٤) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص ٤٦ .

(٥) تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور الغرابى ص ٢٩٦

يخالف أمراً من أمور الدين بحسب فهمهم وإدراكهم ، وهذا الإنكار جعلهم يحكمون على مخالفيهم أحكاماً فيها قسوة ، حيث إنهم يحكمون عليهم بالكفر أو بالشرك ، فهم لم يعرفوا أن الكافر قد فقد جزأى الإيمان ، وهما الاعتقاد والعمل ، وأن من يرتكب أمراً مخالفاً لأوامر الدين فقد هدم أحد جزأى الإيمان وعلى هذا لا يصح أن يسمى كافراً ، ولكن بأى تسمية تسمية الخوارج ؟ إنهم لم يعرفوا تسمية تتناسب مع تلك الحال التى ليست إيماناً كاملاً ، ولا كفرٌ مطلقاً ، وإنما هى حالة وسطى بين هاتين المنزلتين ، ولهذا لما جاء واصل بن عطاء وعرف رأيهم قال : إن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، ويناسب تلك الحالة تسميته «بالفاسق» .

ولقد لاحظنا بوضوح مدى الغلوّ فى فهم الدين لدى الخوارج مما جعلهم يتنكبون الطريق فيضلوا عن معرفة الحق . ولهذا روى أن علياً رضى الله عنه أوصى أصحابه بألا يقاتلوا الخوارج من بعده لأن من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فناله ، فعلىّ رضى الله عنه كان يعتبرهم طالبين للحق ولكن ضلوا وجانبوا طريق الحق . ويعتبر الأمويين طالبين للباطل ونالوه .

لكن هناك طائفتين من الخوارج جاءوا بمبادىء تعد خروجاً صريحاً على الإسلام .

وهما الميمونية أتباع ميمون العجردى الذى أباح نكاح بنات الأولاد ، وبنات أولاد الأخوة والأخوات : وقال فى علة ذلك إن القرآن لم يذكرهن من المحرمات وفهم خطأ ظاهر النص القرآنى الشريف (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت) .

والفرقة الثانية من الخوارج التى خرجت خروجاً صريحاً على الإسلام هى اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة الخارجى وكان إباضياً ، ثم ادعى أن الله سبحانه وتعالى سيبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاب ينسخ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .



الباب الثانى

الإباضيــة

المبحث الأول
الإباضية

تعد الاباضية من أقرب الفرق إلى الجماعة الاسلامية لاعتدال مذهبهم وتسامحهم مع مخالفيهم . لكنهم يغضبون ممن يعتبرهم فرقة من فرق الخوارج .

وسبب إلصاق تهمة الإباضية بالخوارج سياسة الدولة الأموية في التشنيع على الإباضية حتى ينفروا الناس من أصحاب المذهب الإباضي الذين وجدوا منهم الصلابة في مواقفهم ضد الدولة الأموية "وتقبل كثير من المتعصبين والعامة أيضاً هذا الإلصاق ، فاثبتوه في كتبهم ... بدون تمحص أو بحث عن الحقيقة" [1] .

ولعل أبرز سبب لاتهام الإباضية بأنهم خوارج إنكارهم التحكيم . والحقيقة أن بعض كتاب المقالات والفرق الإسلامية كانوا في حكمهم على الإباضية قساة غير موضوعيين "ويبدو أن كتاب المقالات نظروا إلى جميع ما ينسب إلى الخوارج - بحق أو بباطل - فنسبوه إلى الإباضية .

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي :

١ - ينكرون الإجماع . ٢ - ينكرون الرجم . ٣ - ينكرون عذاب القبر .

والإباضية لا ينكرون الإجماع بل يرونه الأصل الثالث من أصل التشريع ولا ينكرون الرجم ، وإنما يقولون إنه ثبت بالسُّنَّة القولية والعملية وليس بقرآن منسوخ ويثبتون عذاب القبر وسؤال الملكين استنادا إلى أحاديث كثيرة تثبت في الموضوع" [2] .

وإنني أميل بشدة إلى رأي الدكتور عوض خليفات الذي يؤكد من خلاله على أن الإباضية ليسوا من الخوارج لأن الإباضية "حرموا قتل الموحدين واستحلال دمائهم وحرموا استعراض الناس وامتحانهم كما فعل متطرفوا الخوارج مثل الأزارقة والنجدية ... أما ما

---

(١) الادلة المرضية في دحض ما نسب إلى الإباضية تاليف بدر الدين هلال حمود اليحمدي الإباضي ص ٣٢ طبعة مطابع النهضة بمسقط ١٩٨٨ .

(٢) الإباضية . علي يحيى معمر الإباضي - المطبعة العربية جرداية الجزائر ١٩٨٥ .

تلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنما هو ناتج عن أحد أمرين : الجهل أو التعصب" [١] .

إن الإباضية يبرءون من أفعال الخوارج فكيف ينسبون إليهم وقد كانوا من أشد الناس عليهم ...

ويقول أحد علماء الإباضية وهو أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلانى [٢] "وزلة الخوارج نافع بن الأزرق [٣] ونويه حين تأولوا قول الله تعالى "وان أطعتموهم إنكم لمشركون" [٤] .

فاثبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصى ما أتوا ولو أصغرها . وأما المارقة فقد زعموا أن من عصى الله تعالى ولو فى صغير من الذنوب أو كبير أشرك بالله العظيم . وتأولوا قول الله عز وجل "وان أطعتموهم انكم لمشركون" . فقضوا بالاسم على جميع من عصى الله عز وجل انه مشرك ، وعقبوا بالأحكام ، فاستحلوا قتل الرجال ، وأخذ الأموال والسبى للعيال ، فحسبهم قول رسول الله ﷺ "إن ناسا من أمتى يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فتنظر فى النصل [٥] ، وتنظر فى القدح [٦] فلا ترى شيئاً وتتمارى فى الفوق" [٧] ... فليس فى أمة محمد ﷺ أشبه شىء بهذه الرواية منهم لأنهم عكسوا الشريعة ، قلبوها ظهراً لبطن ، وبدلوا الأسماء والأحكام ، لأن المسلمين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يعصون ولا تجرى عليهم أحكام المشركين ، فليت شعرى فيمن نزلت الحدود فى المسلمين أو فى المشركين ، فأبطلوا الرجم والجلد والقطع كأنهم ليسوا من أمة أحمد عليه السلام [٨] .

---

(١) الأصول التاريخية للفرقة الإباضية للدكتور عوض خليفات ص ٥٣ نشر وزارة التراث والثقافة عمان - ١٩٨٢ .

(٢) توفى الورجلانى حوالي عام ٥٧٠ هجرية وهو من المفكرين الإباضيين من ذوى الاتجاه العقلانى وأهم مؤلفاته كتاب العدل والإنصاف فى ثلاثة أجزاء والدليل لأهل العقول فى ثلاثة أجزاء ، وترتيب مسند الربيع بن حبيب البصرى .

(٣) زعيم فرقة الأزارقة من فرق الخوارج وقد عاصر عبد الملك بن مروان وتوفى فى عهده .

(٤) آية ١٣ - سورة الأنعام .

(٥) النصل : حديدة السهم .

(٦) القدح : السهم قبل أن ينصل ويراش .

(٧) الفوق : رأس السهم الذى يوضع فيه الوتر .

(٨) دراسات إسلامية فى الأصول الإباضية ص ٣٨ تأليف بكير بن سعيد اعوشت الإباضى الطبعة الأولى ١٩٨٢ مطبعة البعث قسنطينة الجزائر .

من ذلك كله يتضح لنا أن الإباضية كانوا أشداء على الخوارج فكيف نعتبرهم منهم وهم لم يتفقوا معهم إلا فى مسألة عدم قبول التحكيم ورفض مبدأ القرشية فى إمامة المسلمين . [١]

والمعروف أن أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أقر بنفسه بأن التحكيم كان خدعة .

والحقيقة أن هناك مواقف ومفارقات تؤكد الفرق بين الإباضية والخوارج يوضحها الشيخ أبى اسحق ابراهيم اطفيش الإباضى [٢] فى كتيبه "الفرق بين الإباضية والخوارج ... ومن هذه المواقف والمفارقات : [٣]

أولا : قتال القائد الشهير المهلب بن أبى صفرة الأزدى العمانى للخوارج : والمهلب وإن كان مواليا للأمويين – وهو بالطبع عمل لم يرضه الإباضية – فإن من الثابت تاريخياً أن أسرة آل المهلب كانوا إباضية ، وكانوا على اتصال وثيق بالإمام جابر بن زيد الأزدى رضى الله عنه ، ولم يبذل المهلب فى قتال الخوارج والقضاء عليهم إلا لعلمه بعدم العلاقة بينهم وبين الإباضية .

ثانيا : كان المحدث الحجة الربيع بين حبيب الفراهيدى الإباضى صاحب المسند الصحيح يبرأ من الخوارج .

ثالثا : قتال الإمام الجلندى بن مسعود العمانى الإباضى لشيبان الخارجى (وهو من الصفرية من فرق الخوارج) عندما قدم فى جيش إلى عمان هارباً من السفاح – الحاكم العباسى – ودارت معركة بين الإمام الجلندى وبين شيبان وأصحابه ، وأسفرت المعركة عن مقتل شيبان وجنوده .

---

(١) القرشية : أى ضرورة أن يكون الحاكم قرشيا .

(٢) من أعلام الإباضية فى العصر الحديث (ت ١٩٦٥) وكان يعمل بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية ومن مؤلفاته : "الدعاية إلى سبيل المؤمنين" ، "الفرق بين الإباضية والخوارج" الذى قدم له الشيخ أحمد بن مسعود الشيبانى العمانى .

(٣) الفرق بين الإباضية والخوارج للشيخ أبى اسحق ابراهيم اطفيش المقدمة وكتاب الأدلة المرضية فى دحض ما نسب إلى الإباضية ص ٣٥ : ٣٦ .

رابعاً : كان البطل المغوار هلال بن عطية الخراساني الذى صار القائد الأول فى جيش الإمام الجلندى بن مسعود كان على مذهب الصفرية الخوارج . ثم اعتنق المذهب الإباضى . ولم يقبل أئمة الإباضية الانضمام إليهم إلا بعد أن يرجع إلى الذين دعاهم إلى مبادىء الخوارج ويعلمهم ببطلان تلك المبادىء والآراء التى دعاهم إليها ، ثم عاد إلى عمان فكان قائدا ووزيرا للإمام الجلندى بن مسعود .

خامسا : إن الإباضية لم يسلوا السيف على أحد من أهل التوحيد قط ولم تقع منهم حرب ضد أحد من المسلمين ، وإنما كانت مواقفهم أغلبها دفاعية ، أى بقصد دفع الضرر عن أنفسهم تجاه أى عدوان يواجههم ، فهم لم يبدأوابقتال قط كما فعل الخوارج .

سادساً : الإباضية يجيزون المناكحة بينهم وبين سائر الموحدين ، والخوارج لا يجيزون التناكح مع غيرهم لأنهم يرون سواهم مشركين ، وعلى هذا لا يجوز التوارث – أيضاً – بينهم وبين من يخالفهم بطبيعة الحال ، لأن الشرك الذى منع المناكحة والمصاهرة يمنع الموارثة .

سابعاً : الإباضية اتجهوا إلى خدمة الإسلام علما وعملا منذ ابتدأت الفتنة فاشتغلوا بالتدوين فكانوا أول من دون الحديث فجابر بن زيد أول من دون الحديث وأقوال الصحابة فى ديوانه الذى وصفه بأنه وقر بعير : ... ولم يُذْكَرْ أحد من الخوارج ألف كتابا ، والذين يذكرون المؤلفات للخوارج إنما يذكرون الإباضيـة وهم دون شك يريدون بهم التشنيع والتشغيب .

ثامنا : إن الخوارج حكموا على مرتكبى الكبائر من المسلمين بالشرك بينما الإباضية يفرقون بين معانى الكفر فهناك كفر شرك وجحود وهناك كفر نعمة ، وهم يطلقون على مرتكبى الكبائر من المسلمين كفار نعمة لا كفار شرك ، حتى وإن كان مرتكب الكبيرة إباضياً وهذا يطابق ما عند أهل الحديث الذين يطلقون عليه كفر دون كفر وعند الفقهاء الأربعة كبائر فسق .

هذه الفروق المختلفة تجبرنا على الفصل بين الإباضية والخوارج ولا نعتبرهم من فرق الخوارج .

إن العدل والنزاهة العلمية والموضوعية تقودنا قوْداً إلى هذه الرواية النزيهة عن الهوى وإنكار الحق الواضح يقول تعالى "ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى "٨ – سورة المائدة" .

ها هم نفر من زعماء الإباضية الربيع بن حبيب وأبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة وضمام بن السائب يقولون فى الخوارج : "ترى ما داموا على قولهم هذا فخطوءهم محمول عليهم فإذا تجاوزوه إلى الفعل حكمنا بكفرهم" [١] .

ولما تجاوز الخوارج قولهم إلى الفعل حكم عليهم الإباضية بالضلال والكفر .

وقال عبد الله بن إباضى فى رسالته إلى عبد الملك بن مروان "أنا براء إلى الله من ابن الأزرق (زعيم الأزارقة من فرق الخوارج) وصنيعه وأتباعه . لقد كان حين خرج ، على الإسلام فيما ظهر لنا ، ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منهم" [٢]

وقد كان الإمام عبد الله بن أباض شديداً إزاء آراء الأزارقة ... وحتى يتضح لنا الفرق بين الأزارقة والإباضية حرى بنا القاء الضوء على الأزارقة وأهم آرائهم الكلامية والفقهية .

والأزارقة هم أتباع نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى المكنى بأبى راشد [٣] وهو من

---

(١) أصدق المناهج فى تمييز الإباضية من الخوارج : سالم بن حمود السيابى تحقيق د. سيدة اسماعيل الكاشف ، مطابع سجل العرب ١٩٧٩ نشر وزارة التراث القومى والثقافة عمان .

(٢) من رسالة عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان .

(٣) بايع الأزارقة نافع وسموه أمير المؤمنين . وصاروا أكثر من عشرين ألفا خرج بهم بالبصرة عام خمس وستين واستولوا على الأهواز وما وراءها من أراض فارس وكرمان . وكان مع نافع من أمراء الخوارج عطية بن الأسود الحنفى ، وعبد الله بن ماحوز التميمى وأخواه عثمان والزبير وعمر بن عمير العنبرى وقطرى بن الفجاءة المازنى وعبيدة بن هلال اليشكرى وأخوه محرز بن هلال وصخر بن حبنا التميمى وصالح بن مخراق العبدى وعبد ربه الصغير .

وكان عامل البصرة حينئذ عبد الله بن الحرث الخزاعى . فأخرج عبد الله بن الحرث جيشا مع مسلم بن عيسى بن كريز بن حبيب بن عبد شمس لحرب الأزارقة ، فاقتتلوا بدولاب الأهواز ، فقتل مسلم وأكثر أصحابه .

فخرج إليهم من البصرة عثمان بن عبيد الله بن معمر التميمى فى ألفى فارس ، فهزمته الأزارقة فخرج إليهم حارثة بن بدر الفدانى فى ثلاثة آلاف من جند البصرة فهزمتهم الأزارقة ، وكان المهلب بن أبى =

أتباع نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي .

ولما قتل نافع بن الأزرق أمرت الخوارج عليهم عبد الله بن ماحوز التميمي [١] ، واشتد قتالهم . ولما قتل عبيد الله ماحوز أمر الأزارقةعليهم قطرى بن الفجاءة [٢] الذى حاربه المهلب بن أبى صفرة حرباً شديدة حتى قتله ، وكان مما حاربهم به المهلب اختلاق الأحاديث عليهم ووضعها "فقد كان يضع الحديث ليشد به أزر قومه ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ويقول أن الحرب خدعة ، وكان حى من الأزد إذا رأوا المهلب خارجاً قالوا "راح يكذب" وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كل الفتى   لو كنت تصدق ما تقول [٣]

= صفرة يومئذ بخراسان فكلف بحرب الأزارقة فرجع المهلب إلى البصرة وانتخب من جندها عشرة آلاف وانضم إليه قوم من الأزد . فصار فى عشرين ألفا وخرج وقاتل الأزارقةوهزمهم عن دولاب الأهواز إلى الأهواز ومات نافع بن الأزرق فى تلك الهزيمة . مختصر المقالات ص ٧٣ .

(١) بايعت الأزارقة عبيد الله بن ماحوز التميمى بعد مقتل نافع وقاتلهم بعد ذلك بالأهواز ، فقتل عبيد الله بن ماحوز وقتل أيضاً أخوه عثمان مع ثلاثمائة من أشداء الأزارقة ، وانهزم الباقون .

(٢) بعد مقتل ابن ماحوز بايع الأزارقة قطرى بن الفجاءة وسموه أمير المؤمنين وقد قاتلهم المهلب قتالا عنيفاً وانهزمت الأزارقة الى سابور قرب شيراز من أرض فارس وجعلوها دار هجرتهم وثبت المهلب وبنوه على قتالهم تسع عشرة سنة ، بعضها فى أيام ابن الزبير وباقيها فى خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج على العراق .

وقرر الحجاج المهلب على حرب الأزارقة وجعل له خراج فارس وكرمان إلى أن يفرغ من أمر الأزارقة ، فدامت الحرب بين المهلب والأزارقة كرا وفرا بين فارس والاهواز إلى أن وقع الخلاف بين الأزراقة ففارق عبد ربه الكبير قطرياً فى سبعة آلاف رجل وفارق عبد ربه الصغير فى أربعة آلاف ، وصار كل واحد منهما فى ناحية من نواحى كرمان . وبقى قطرى فى بضعة عشر ألف رجل بأرض فارس . وقاتله المهلب بها . وهزمه إلى ارض كرمان وتبعه وقاتله بأرض كرمان إلى أن هزمه إلى الرى ثم قاتل عبد ربه الكبير فقتله ، وبعث بابنه يزيد بن المهلب إلى عبد ربه الصغير فأتى عليه وعلى أصحابه .

وبعث الحجاج بسفيان بن الأبرد الكلبى فى جيش كثير إلى قطرى بعد أن انحاز من الرى إلى طبرستان فقتلوه بها وانفذوا برأسه إلى الحجاج وكان عبيدة بن هلال اليشكيرى الخارجى قد فارق قطريا وانحاز إلى منطقة تسمى "قومس" (فى ذيل طبرستان) . فتبعه سفيان بن الأبرد هناك فقتله وقتل أصحابه وخلص الأرض من الأزارقة . المرجع السابق ٧٥ / ٧٦ .

(٣) ص ٣١٣ فخر الإسلام أحمد أمين . ويقول الأستاذ أحمد أمين ولعل هذ وأمثاله هو السر فيما ترى من أحاديث كثيرة ملئت بها كتب التاريخ والأدب فى ذم الخوارج .

الأزارقة وآراؤهم الكلامية والفقهية

يقال أن أول من أحدث الخلاف بين الخوارج هو نافع بن الأزرق الحنفى ويقال أن سبب الخلاف الذى أحدث نافع [١] "ان أمرأة من أهل اليمن عربية ترى رأى الخوارج ، تزوجت رجلا من الموالى على رأيها ، فقال لها أهل بيتها : فضحتنا ، فأنكرت ذلك ، فلما أتى زوجها قالت له : إن أهل بيتى وبنى عمى قد بلغهم أمرى ، وقد عيرونى وأنا خائفة أن أكره على ترويج بعضهم ، فاختر منى إحدى ثلاث خصال إما أن تهاجر إلى عسكر نافع حتى تكون مع المسلمين فى حوزهم ودارهم وإما أن تخبأنى حيث شئت ، وإما أن تخلى سبيلى ، فخلى سبيلها ، ثم أن أهل بيتها استكرهوها فزوجوها ابن عم لها لم يكن على رأيها فكتب ممن بحضرتها بأمرها إلى نافع بن الأزرق يسألونه عن ذلك فقال رجل منهم : إنها لم يسعها ما صنعت ولا وسع زوجها ما صنع ، من قبل هجرتهما ، لأنه كان ينبغى لهما أن يلحقا بنا لأنا اليوم بمنزلة المهاجرين بالمدينة ، ولا يسع أحد من المسلمين التخلف عنا ، كما لم يسع التخلف عنهم ، فتابعه على قوله ذلك نافع بن الأزرق وأهل عسكره إلا نفرا يسيرا ، وبرئوا من أهل التقية ، وأحدثوا أشياء .

وقد أقام نافع بن الأزرق بموضعه من "الأهواز" واستتب له الأمر هناك . ويوماً ما جاءه مولى لبنى هاشم قال لنافع : "إن أطفال المشركين فى النار ، وإن من خالفنا يا نافع مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال المشركين لنا حلال ، قال له نافع : كفرت وأدللت على نفسك : قال له : إن لم آتك يا نافع بهذا من كتاب الله فاقتلنى (قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) [٢] .

فهذا أمر الكافرين ، وأمر أطفالهم فشهد نافع أنهم جميعاً فى النار ورأى قتلهم ، ولهذا فإن الأزارقة من أهم آرائهم المعروفة أن – أطفال مخالفيهم مخلدون فى النار ، أى "أن الذنب الذى أوجب كفر مخالفيهم يسرى إلى أولادهم ، مع أن أولادهم لم يرتكبوه ، ولكنه انحراف فكرى من أصحابهم" [٣] .

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى جـ ١ ص ١٦١ و ص ١٦٢ .

(٢) الكامل للمبرد (جـ ٥ ص ١٤٧ باختصار وتصرف) .

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة جـ ١ ص ٨٦ .

وقد قال نافع إن الدار دار كفر (يقصد دار مخالفيهم) إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا توارثهم ، ومن جاء منهم فعلينا أن نمتحنه ، وهم ككفار العرب لا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد [١] بمنزلتهم والتقية لا تحل [٢] .

ولما خرج عليه نجدة جرى بين نافع بن الأزرق ونجدة جدال طويل ، وكتب نافع إلي نجدة يقول "أما هؤلاء القعد [٣] فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فقهوا فى الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قاله الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا : (كنا مستضعفين فى الأرض) فقيل لهم : (ألم تكن أرض الله واسعة فتها جروا فيها) وقال : (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) وقال (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) فخبر بتعذيرهم وانهم كذبوا إليه ورسوله وقال (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة منى ومنك ، فقال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا ... فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا نكون نقوله فى قومنا ؟ والله يقول : (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر) ، وهؤلاء كمشركى العرب لا نقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام ، وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم" [٤] ومن ذلك نلاحظ أن الأزارقة "استحلوا خفر الأمانة التى أمر الله سبحانه بأدائها وقالوا : قوم مشركون لا ينبغى أن تؤدى الأمانة إليهم" .

ومن آرائهم الفقهية أنهم ينكرون رجم الزانى ، فإنهم لا يقرون حد الرجم . ويسقطون

---

(١) أى الذى لا يمضون إلى القتال .

(٢) يرى الأزارقة أن التقية لا تجوز مطلقاً لا بالقول ولا بالعمل .

(٣) الأزارقة يرون أن القعدة عن الهجرة إليهم مشركون حتى وإن كانوا على رأيهم بل أكثر من ذلك فإنهم يرون ضرورة امتحان من يريد الانتماء إليهم قبل قبوله ، وذلك بأن يجسر على قتل أسير من مخالفيهم يقدمونه إليه ، كما يستبيحون قتل نساء مخالفيهم وأطفالهم .

(٤) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ١٧٨ .

حد الرجم عن الزاني المحصن ، حيث أن حد الرجم لم يذكر فى القرآن .

وأيضاً فإن الأزارقة أسقطوا الحد عمن يقذف الرجال بخلاف من يقذف النساء حيث أن حد الأول لم يذكر فى القرآن بخلاف الثانى ومعنى ذلك أنهم أخذوا بظاهر النص القرآنى الشريف (والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون) ، فلم يذكر حد لقذف المحصنين من الرجال فى ظاهر للنص الشريف .

وكما أشرنا من قبل فإن الأزارقة كفروا جميع المسلمين ما عداهم وقال نافع بن الأزرق إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا - أحدا من غيرهم إلى الصلاة إذا دعاهم إليها ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزوجوا منهم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره .

ومن مبادىء الأزارقة أنهم يقولون : إن علياً "كرم الله وجهه" كافر (١) وأن الله سبحانه وتعالى أنزل فى شأنه (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام) .

وإن قاتل "على" "عبد الرحمن بن ملجم" كان على حق فى رأيهم وأن الله سبحانه وتعالى أنزل فى شأنه (ومن الناس من يَشْرِى نفسه ابتغاء مرضاة الله) ثم كفر الأزارقة عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن العباس رضى الله عنهم ثم سائر من خالفهم من المسلمين كما ذكرنا .

ومن مبادئهم أيضاً قولهم إنه يجوز على الأنبياء أن يرتكبوا الكبائر والصغائر ، وكما يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله (٢) "وإن ذلك بلا ريب من المتناقضات فى أقوالهم ، إذ أنهم بينما يكفرون مرتكب الكبيرة يجوزونها على الأنبياء فالنبى قد يكفر ثم يتوب ، وذلك أخذوه من ظاهر قول الله تعالى : (انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)" .

---

(١) الذى يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها : إكفار الإمام على ، وسيدنا عثمان والحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضى بتحكيم الحكمين ، والإكفار بارتكاب الذنوب ، ووجوب الخروج على الحاكم الجائر

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٨١ .

والحق أن أخذهم كثيراً بظاهر النص جعلهم – غالباً – لا يدركون حقيقة جوهر النص ومراميه . ولو أنهم راعوا أسباب تنزيل الآيات وعرفوا المحكم والمتشابه ، وأسرار اللغة العربية ما وقعوا أبداً فيما وقعوا فيه لحماسهم الفكرى وعنادهم العجيب .

من هذا العرض للأزارقة وأرئهم الكلامية والفقهية يتبين لنا أن الإباضية لا يكاد يجمعهم بالخوارج سوى إنكار التحكيم . لأن الاباضية حرموا قتل الموحدين واستحلال دمائهم ، وحرموا استعراض الناس وامتحانهم . وما اتهمهم به بعض الكتاب من تهمة انتسابهم للخوارج فيه حيف كبير وظلم لهم يقول حسن السندوبى فيما نقله عنه سالم بن حمود بن شامس السيابى الإباضى "المذهب الإباضى وأهل هذا المذهب من أفاضل أهل القبلة وممن ينفرون من البدع التى ليست من الدين فى شىء ... وكنت خدعت بقول خصوم الإباضية فيهم فرددت مجمل ما يتهمونهم به ، ثم تبين لى اليقين فيهم فعلمت أنهم من خيار المسلمين ، وممن يرجعون فى كل أمورهم من عبادة ومعاملة إلى الكتاب والسنة" (١) .

ويكفى حكم الإباضية على الخوارج فقد كان من أقسى الأحكام عليهم لقول أئمة الإباضية الربيع بن حبيب وأبو عبيده مسلم بن أبى كريمة وضمام بن السائد فى الخوارج" يرى ماداموا على قولهم هذا فخطوءهم محمول عليهم ، فإذا تجاوزوه إلى الحكم حكمنا بكفرهم" (٢) .

ولما تجاوزوا القول إلى الفعل تبرأوا منهم ومن أفعالهم وأقوالهم . وقال عبد الله بن إباض فى رسالته الشهيرة إلى الخليفة الأموى عبد الله بن مروان "إنا براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه . لقد كان حين خرج ، على الإسلام فيما ظهر لنا ، ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منهم" (٣) .

---

(١) سالم السيابى العمانى ، طلقات المعهد الرياضى في حلقات المذهب الإباضى . ص ٨٣ ، ٨٤ طبعة ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ .

(٢) سالم السيابى : أصدق المناهج فى تمييز الإباضية من الخوارج ص ٢٣ تحقيق د. سيده اسماعيل الكاشف ، مطابع سجل العرب بالقاهرة ١٩٧٩ ، نشر وزارة التراث القومي والثقافية بعمان .

(٣) انظر نص رسالة بالملحق .

المبحث الثانى

فرق المذهب الإباضى

ينضوى تحت المذهب الإباضى عدد من الفرق هى عند الإباضية أنفسهم ست فرق : النكارية ، والخلفية ، والحسينية والعمرية ، والسكاكية والفرثية .

ويضيف أصحاب المقالات إلى هذه الفرق فرقاً أخرى لا يعتبرها الإباضية أنفسهم من فرقهم .

فأبو الحسن الأشعرى فى كتابه مقالات الإسلاميين يذكر لهم فرقة تسمى "طاعة لا يراد الله بها" (١) .

ويضيف ابن حزم فى الفصل فى الملل والنحل فرقة "اليزيدية" التى ينكرها الإباضية إنكاراً تاماً .

والبغدادى يذكر من فرقهم فرقة تقال لها "الحارثية" (٢) لا يعترف الإباضية بها ، ويذكر كذلك من فرقهم "الحفصية" (٣) .

وينكر ذلك الإباضية . ويؤكدون على أن كتاب المقالات أرادوا - الإساءة إليهم بدافع التعصب المذهبى .

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٨٥ لأبى الحسن الأشعري ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ط ٢ سنة ١٩٦٩ م . نشر مكتبة النهضة المصرية / القاهرة .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٠٥ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط . المدنى / القاهرة .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٤ .

أهـم الفرق الإباضيـة :

١ - النكارية :

ظهرت فرقة النكارية فى منطقة المغرب العربى فى ظل الدولة الرستمية الإباضية . ففى عام ١٧١ هـ حدث أن الإمام عبد الرحمن بن رستم إمام الدعوة الإباضية فى بلاد المغرب أحس بقرب أجله فدعى إلى ترك الأمر شورى بين سبعة من زعماء الإباضية من بينهم ابنه عبد الوهاب بن رستم خليفة لأبيه فى إمامة الدعوة الإباضية فى بلاد المغرب .

وكان ابن فندين يرى أنه أحق بالزعامة من ابن رستم ويعتقد أنه أكثر كفاءة وقدرة وعلماً من عبد الوهاب بن رستم . ولهذا بايعه على مضض وقال بتردد نبايع عبد الوهاب على ألا يقضى أمراً دون مشورة هيئة مخصوصة من الناس .

فأجابه حينئذ أحد أئمة الإباضية واسمه مسعود الأندلسى : نحن لا نعلم فى الإمامة شرطا غير أن يحكم فينا بكتاب الله وسيرة السلف الصالحين . وهكذا تمت البيعة باختيار عبد الوهاب بن رستم إماماً للإباضية فى بلاد المغرب .

لكن ابن فندين مع نفر من أصحابه أنكروا إمامة ابن رستم فسموا بالنكار وزعماء الفرقة بالإضافة إلى أبو قدامة بن فندين ، وعبد الله بن يزيد الفزارى ، وعبد الله بن عبد العزيز ، وأبو المؤرج عمرو بن محمد السدوسى ، وشعيب بن المعرف ، وحاتم بن منصور .

والإباضية يطلقون على هذه الفرقة عدة أسماء منها "النكاث" لأنهم نكثوا البيعة بغير حدث ، و"النجوية" لأنهم كانوا يجتمعون ويتناجون بالإثم والعدوان ، و"الشغبية" لأنهم أدخلوا بذلك شغباً فى الدعوة الإباضية و"الملحدة" لأنهم ألحدوا فى الأسماء والأحكام . (١)

وحيث أن ابن فندين كان ينظر إلى نفسه نظرة نرجسية خاصة ويعتقد اعتقادا كبيراً فى مواهبه وكفاءته . وكان يظن أن ابن رستم سيرجع إليه فى كل الأمور أو يسند إليه أهم الأعمال والمسائل ولكنه فوجىء بأنه ليس محل ثقة الداعية فهاله ذلك وأعظم هذا الأمر فى

---

(١) طبقات المشائخ بالمغرب لأبى العباس أحمد بن سعيد الدرجينى جـ ١ ص ٥١ تحقيق ابراهيم طلاى طبعة مطبعة البعث قسنطينة الجزائر ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م .

نفسه فأثار زوبعة وشغباً وأشعل نزاعاً وفتنة بزعمه أن الإمامة باطلة على شرطه فإنه قد بايع ابن رستم فى ظنه على ألا يقضى فى شىء دون مشورة جماعة مخصوصة من الناس وهى حجة أبطلها من قبل مسعود الأندلسى ووقع الخلاف بين الجماعة الإباضية فى المغرب فاقترح مقترحون منهم بأن ترسل رسائل استفتاء إلى أئمة الإباضية فى المشرق الإسلامى (عمان والبصرة) "فأرسل إليهم الفقيه الإباضى الربيع بن حبيب صاحب "الجامع الصحيح" بأن الإمامة صحيحة والشرط باطل وأنه يجوز تولية رجل من المسلمين إذا كان فيهم من هو أفقه منه" (١) .

ولم يرض ابن فندين بحكم فقهاء الإباضية وأثارها حربا ضروسا ضد ابن رستم "استعان على إضرامها بوسائل دينية استغفل فيها فريقاً كبيراً من العامة واستخفهم ، ... وما توفق الإمام إلى القضاء عليها إلا بعد سفك دماء غزيرة ، وكان عدد ضحايا هذه الفتنة لا يقل عن عشرين ألفاً من الطرفين من بينهم رأس الفتنة يزيد بن فندين" (٢)

وتعتمد حركة ابن فندين على مبدأين أساسيين هما :

- انه لا تصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل

- وأنه تصح الإمامة بشروط إذا شرطها الناس عند البيعة وتسقط لمخالفة هذه الشروط .

ولأن فرقة النكارية كانت تميل إلى العنف والمغالاة فى آرائها فإنها لم تدم طويلاً وإن كان بعض المؤمنين بأفكارها حاولوا بعثها من جديدة خلال القرن الثالث الهجرى مثل عبد الله بن يزيد الفزارى وأبو يزيد مخلد بن كيداد اليعزنى الذى دعى إلى الخروج على الدولة العبيدية وزاد على آراء النكارية ومقالاتهم آراءا يخالف بعضها أصول الإسلام ومبادئه وهذه الآراء تتعارض كثيراً مع مبادىء وأصول الأباضية .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ، تأليف أبو ربيع سليمان بن عبد الله البارونى ص ٣٤ ط ثالثة ، مطابع العالمية ، روى ، سلطنة عمان ١ .

وقد ذكر أبو عمر عثمان بن خليفة السوفى المارغنى الإباضى لفرقة النكارية [١] نحوا من عشرين مقالة بين أصول وفروع تختلف فيها جميعاً عن الإباضية منها أربع مقالات فى مواضع سياسية نتجت عن حركتهم وهى :

١ - الإمامة غير مفترضة .

٢ - صلاة الجمعة غير جائزة وراء الأئمة الجورة .

٣ - عطايا الملوك لا يحل أخذها .

٤ - لا تجوز ولاية المفضول .

وجملة أقوالهم التى خالفوا فيها الإباضية - حسبما ذكرها ابن خليفة المارغنى كما يأتى :

(١) ألحدوا فى الأسماء .

(٢) قالوا إن ولاية الله وعدواته تتقلب بالأحوال .

(٣) قالوا إن أسماء الله مخلوقة .

(٤) قالوا إن الإمامة غير مفترضة . [٢]

(٥) قالوا يجوز الانتقال من الولاية إلى الوقوف .

(٦) قالوا حجة الله تقوم بالسماع وقد سمع الناس .

(٧) قالوا من لم تبلغه دعوة الإسلام ودعى إلى دين سماوى آخر لا يجوز له أن يجيب

(٨) قالوا إن صلاة الجمع - غير جائزة خلف أئمة الجور [٣] .

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، تأليف على يحيى معمر ، ص ٣٠٢ ص ٣٠٣ باختصار .

(٢) من المعلوم أن أئمة الإباضية كانوا يقولون إن الإمامة فرض كفاية على الأمة المسلمة .

(٣) أئمة الإباضية كانا يرون أن صلاة الجمعة واجبة وراء الأئمة الجورة ما أقاموها ووجدت شروطها .

(٩) عطايا الملوك لا يحل أخذها [١] .

(١٠) قالوا الله لا يأمر بالنوافل .

(١١) قالوا يلزمنا العمل بالفرائض ولا يلزمنا العلم بها ولا من معرفتها شيء .

(١٢) قالوا الحق فى قول واحد على واحد من المختلفين فى النوازل التى يسع فيها الخلاف وقد ضاق على الناس خلاف الحق .

(١٣) قالوا الحرام المجهول حلال .

(١٤) قالوا يدعى المشرك إلى جملة التوحيد ، وبراءة أحداث أهل الأهواء من أهل القبلة .

(١٥) قالوا بالوقوف فى الاطفال كلهم .

(١٦) قالوا يجوز شرب الخمر على التقية .

(٩١٧ قالوا لا تجوز إمامة من ولى أمر المسلمين وفى المسلمين أفضل منه .

(١٨) قالوا لا تقوم الحجة فيما يسع حتى يجتمع المسلمون بأسرهم .

(١٩) قالوا لا كفر إلا فيما تقطع عليه اليد وهو ربع دينار ومن أخذ دونه ليس عليه شيء .

(٢٠) قالوا اللطمة والنظر بشهوة والقبلة ودخول الحمام بغير إزار صغائر غير كبائر

ومن عرض هذه المبادىء يتضح لنا أن مبادى فرقة النكارية تختلف كثيراً عن مبادىء الإباضية وإن كانت تحسب على الإباضية إلا أن هذه الفرقة خرجت عن مبادىء الإباضية واستقلت بأفكارها الخاصة ، وأن كل ما كان يربطها بالإباضية هو أن ابن فندين صاحب هذه الفرقة كان يوما ما إباضيا ، ولكنه خرج عن بيعة وطاعة الإمام الإباضى عبد الوهاب

---

(١) كان أئمة الإباضية يقولون بجواز حل أخذ العطايا من الملوك مالم يؤد إلى حرام .

بن عبد الرحمن بن رستم وحاربه وثار عليه .

٢ - النفاثية :

مؤسس هذه الفرقة رجل يقال له فرحان نصر النفوس المعروف بنفاث وهو من قرية نفاثة القريبة من جبل نفوسة بليبيا .

وكان معروفا بنكائه ولهذا شعر بخيبة أمل حينما وجد نفسه من غير منصب إدارى أو سياسى فى الدولة الرستمية ونقم على تولية أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إمامة الإباضيين فى المغرب [1] وأخذ ينتقد أفلح ويطعنه طعناً شديداً فى مجالسه المختلفة وحقد عليه حقداً شديداً . وكان يرى أنه أحق منه فى إمامة الإباضيين ببلاد المغرب .

وأخذ نفاث ينفث انتقاداته ضد الدولة الرستمية ويجهر ضدها بدعوته ويرسل خطاباته الشديدة اللهجة إلى الإمام أفلح ، ولما أحس بخطر الإمام وانه قد يؤدى بحياته نتيجة خطر دعوته على الإباضيين فر بنفسه إلى بغداد وعاش فيها زمناً قليلاً حتى يهدأ الإمام من غضبه عليه ثم عاد ثانية إلى بلده القريبة من جبل نفوسه الليبية واختلفت آراء المؤرخين فى موقفه بعد عودته من بغداد فقال بعضهم أنه خلد إلى السكون والراحة والبعض الآخر يقول إنه ظل عند موقفه الأول من الدولة الرستمية . ونحن نميل بقوة إلى الرأى الأول لأنه لم يحدث من نفاث منذ عودته إلى بلده ما يؤثر على الدولة الرستمية .

أما الآراء التى كان يقول بها . فإن أهم هذه الآراء حسبما ذكرت المصادر الإباضية نفسها [2] : .

١ - أن الله هو الدهر فلما سئل عن ذلك قال هكذا وجدته فى الدفتر - يعنى الكتاب المسمى بهذا الإسم - وهذا الكتاب لا أساس له ولا يعرف عند الإباضية كتاب بهذا الإسم فهو مجهول غير موجود .

---

(١) توفي أفلح إمامة الإباضية فى المغرب بعد وفاة أبيه عبد الوهاب بن رستم سنة ١٩٠ هـ - ٨٠٥م .
(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات فى القديم والحديث ص ٣٠٧ ، ومخطوطة أبو عمرو المارغنى (فرق الإباضية الست وما زاغت به عن الحق) ص ٤ .

ولعل نفاثا هذا يقصد المعنى البياني للحديث الصحيح "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر" بمعنى أن ما تنسبونه إلى الدهر من الأحداث التي لا تعجبكم فتسبونه بسببها إنما خلقها الله تبارك وتعالى فأنتم عندما تسبون الدهر فكأنما تسبون خالقها وهو الله عز وجل .

٢ – أنكر الخطبة في صلاة الجمعة وقال إنها بدعة . (١)

---

(١) لم يرد أنه صلي الله عليه وسلم أو أحدا من الصحابة والخلفاء الراشدين فيمن بعدهم صلى الجمعة بدون خطبة . وقد واظب رسول الله على الخطبة . وقال ابن عمر رضى الله عنهما "كان النبي يخطب الخطبتين كان يجلس إذا صعد المنبر حتى يفرغ المؤذن ثم يقوم فيخطب ثم يجلس فلا يتكلم ثم يقوم يخطب" (أخرجه السبعة إلا ابن ماجة) .

وخطبة الجمعة شرط لصحة الجمعة عند الأئمة الأربعة والجمهور . ويشترط عند المالكية والشافعية خطبتان وهو مشهور مذهب الحنابلة .

وقال الأحناف والأوزاعى واسحق بن راهويه وابن المنذر الشرط خطبة واحدة والثانية سنة . وهو رواية عن أحمد .

وقال الحسن البصرى والظاهرية وابن الماجشون المالكي : الخطبة مستحبة .

والحقيقة أن الأحاديث الصحيحة أوضحت وبينت صفة الخطبة ومواظبة الرسول عليها ، فلم يصلها بدون خطبتين والرسول يقول "صلوا كما رأيتمونى أصلي" ومن هنا فإن الخطبة شرط لصحة صلاة الجمعة وليست من المستحبات كما رأى بعض العلماء . "وكان النبى يخطب خطبتين" . فالخطبتان من شروط الصلاة وأن تكونا قبيل صلاة الجمعة مباشرة . ويشترط للخطبتين أن تشتملا على حمد الله تعالى لقول رسول الله "كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجزم" (رواه أبو داود وأحمد) والصلاة على رسول الله ، والوصية بتقوى الله ، وقراءة آية من القرآن فى إحداهما ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات فى الخطبة الثانية خاصة لأن الدعاء بالخواتيم أفضل كما يشرع القيام للخطبتين والجلوس بينهما جلسة خفيفة .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : "كان النبى يخطب يوم الجمعة قائما ثم يجلس ثم يقوم كما يفعلون اليوم" (رواه الجماعة) .

فالقيام فى الخطبتين مع القدرة مشروع بالاتفاق : واختلف الفقهاء فى وجوبه ، فقال مالك والشافعى : واجب ، وقال أبو حنيفة وأحمد لا جيب . وأوجب الشافعى خاصة الجلوس بين الخطبتين لقول ابن عمر رضى الله عنهما "كان النبى يخطب يوم الجمعة مرتين بينهما جلسة (رواه أحمد وابن ماجة) .

وقال الجمهور الجلوس بين الخطبتين سنة .

من ذلك كله يتضح لنا ضلال رأى نفاث الذى ينكر فيه خطبة الجمعة وقوله إنها بدعة .

انظر : مبحث صلاة الجمعة بكتاب الصلاة للمؤلف ص ٢٣٧ : ٢٣٩ .

٣ – أنكر النفاثية على الإمام استخدام عماله لجمع الحقوق الشرعية ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا . [١]

٤ – قال النفاثية إن ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ لأب . [٢]

٥ – وقال النفاثية إن الإمام إذا لم يمنع رعيته من جور الجورة وظلمهم لا يحل له أن يأخذ الحقوق التى جعل الله عليهم لضعفه عنهم . [٣]

والحقيقة أن النفاثية ماتت بموت صاحبها . ولم يكن لها اتباع حقيقيون حتى تعيش ولأن آراء صاحبها فيها الغلو الظاهر فقد انقرضت تماماً ذلك أن الأفكار الغالية تخبو – عادة – بسرعة حين يكتشف حقيقة مبادئها . وكما اندثرت النكارية من قبل فقد اندثرت النفاثية هى الأخرى .

٣ – الخلفية :

وزعيم هذه الفرقة هو "خلف بن السمح بن أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافر" .

وكان جد خلف إماماً على ليبيا فلما مات عين ابنه السمح "واليا على جبل نفوسة وما يليها إلى ضواحى طرابلس وقابس بليبيا وتونس" [٤] وكان إمام الإباضية آنذاك هو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذى كان فى نفسه شيء من تعيين عبد الأعلى لابنه قبل

(١) هذا رأى خاطىء فلا بد للحاكم المسلم من أن يستخدم عماله لجمع الحقوق الشرعية وإلا خلى بيت مال المسلمين من المال وضاعت حقوق فقراء المسلمين وضعف كيان الدولة الاقتصادى .

(٢) هذا رأى شاذ يقول فيه أبو عمرو المارغنى "قال المشايخ لو لم يفت نفاث إلا بهذه الفتوى لكفر بها" فرق الإباضية الست للمارغنى ص ٤ .

(٣) هذا المبدأ الذى ذكره عن نفاث مبدأ غير صحيح على الإطلاق والضلال فيه واضح كما يقول المارغنى "فضل بذلك وكذب ونقض أمر الله موجبة على الناس بجور الجائرين ، بل كل من أقر بإمامة العدل عليه دفع الحق لإمامه والزكاة وزكاة الفطر ولو لم يمنع الإمام رعيته لضعف دولته وغلبه الكفرة على رعيته فعليهم حقوقه أجمعين لأن ذلك حق الله عليهم وليس هى بأجرة ولا بجزية .

(٤) مختصر تاريخ الأباضية للبارونى ص ٣٥

موته دون استشارته . ولما "مات السمح قام جماعة من الناس وبايعوا ابنه" خلفا بغير إذن الإمام الإباضى [١] فاستشاط عبد الوهاب بن رستم غضباً من هذا الفعل وأمر بعزل خلف بن السمح لكن خلفا رفض أن يذعن لأمر الإمام عبد الوهاب وقال برأيه أن الجبل (يقصد جبل نفوسه) حوزة مستقلة لها إمام مستقل كما أن تاهرت (حيث يوجد الإمام) حوزة مستقلة هى الأخرى لها إمامها . [٢]

وهكذا اشتعلت نيران الحرب بين خلف وعبد الوهاب وإزداد أوارها بتولية الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى استطاع أن يهزم جيش خلف واستطاع والى جبل نفوسه من قبل أفلح وهو العباس بن أيوب أن يقضى على فلول جيش خلف قضاء تاماً وبموت خلف بن السمح قضى على "الخلفية" أيضا .

٤ – الحسينية أو العمرية :

هم اتباع رجل يقال له أبو زياد أحمد بن الحسين الطرابلسى ولا يعرف على التحديد تاريخ مولده أو وفاته وإن كانت حياته خلال القرن الثالث الهجرى وقيل عنه إنه ألف العديد من الكتب التى لا وجود لها بين أيدينا والتى لا يعرف عنها الإباضية أى شىء .

وهذه الفرقة امتزجت مع فرقة ثانية اسمها العمرية نسبة إلى رجل اسمه عيسى بن عمير [٣] ويبدو أن أصلها كان واحدا ولكن أئمتها اختلفوا فقال بعضهم بمقالات تقترب من الإباضية وقال اخرون بمقالات تقترب من المعتزلة ولهم مقالات تبتعد عن جميع الأطراف .

وقد أورد أبو عمرو المارغنى الإباضى أهم آراء هذه الفرقة وهى : [٤]

---

(١) طبقات المشايخ بالمغرب للدرجينى جـ ١ ص ٦٨ .

(٢) يقول أبو عمر المارغنى الإباضى "ليس بيننا وبين الخليفة مسائل إلا واحدة وهى قولهم لكل حوزة إمام لا يعدوها إلى غيرها وضلوا ضلالا بعيدا لخلافهم الإجماع ونقضهم ما سارت به الأمة أجمعين وإنما خرج عن الإمام عبد الوهاب رحمه الله أيضاً "مخطوط فرق الإباضية الست للمارغنى ص ٥ .

(٣) الإباضية بين الفرق الإسلامية لعلى يحيى معمر ص ٣١٤ و ص ٣١٥ .

(٤) مخطوط فرق الإباضية الست للمارغنى ص ٥ ، ٦ . والمرجع السابق ص ٣١٤ ، ص ٣١٥ .

١ – لا يشرك من أنكر سوى الله .

٢ – يقولون فى أحكامهم بشرك المتأولين المخطئين من فرق الأمة الإسلامية .

٣ – الحب والرّضا والولاية والعداوة والبغض والسخط أفعال الله وليست بصفات له .

٤ – أباحوا الزنا وأخذ الأموال لمن أكره على ذلك يتقى بها ويغرم بعد ذلك منه .

٥ – الحرام المجهول معاقب عليه .

٦ – فرقوا بين الأسماء والأحكام فسموا اليهود منافقين وسموا المتأولين مشركين وأجازوا السبى منهم ، وأحلوا النكاح منهم وهم عندهم مشركون فيما زعموا .

٧ – قالوا إن حجة الله تنال بالفكر فى دين الله اضطراراً .

٨ – لا يجوز أن يبعث الله رسولا إلا بعلامة يعرف بها ويتميز عن غيره ولا يكون له حجة إلا بها .

٩ – وقالوا إن العقلاء يتفاضلون فى التكليف والاستطاعة ولا يتفاضلون فى العقل .

١٠ – وقالوا خوف الرسل خوف إجلال لا خوف عقاب .

والناظر إلى هذه المبادىء يجد أن بعضها يخرج صاحبها عن الملة الإسلامية وهذا هو السبب فى تبرّى الإباضية من هذه الفرقة الحسينية أو العمرية يقول الشيخ أبو زكريا الوارجلانى " إن طائفة تنتحل اسم الإباضية يقال لهم العمرية لم تجمعنا وإياهم جامعة من قبل ، وهم يزعمون أنهم إباضية وهم أتباع عيسى بن عمير" . (١)

ومن هذا المنطلق الموضوعى الذى نحاول أن نسير فيه نستطيع القول ؟ إن صحة مقولة إنه "ليس كل من انتسب إلى الإباضية اعتبر إباضيا ، وليس كل من خالف من الإباضية فى مسألة من مسائل الاجتهاد يعتبر خارجا عن الإباضية ورئيس فرقة مستقلة ويكون له عنوان مستقل" (٢)

---

(١) ، (٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية لعلى يحيى معمر ص ٣١٥ .

إن الحسينية أو العمرية تعد بمبادئها هذه فرقة من الفرق الخارجة عن الإسلام وخارجة عن مبادىء الإباضية الصحيحة .

٥ - السكاكية :

زعيم هذه الفرقة رجل اسمه عبد الله السكاك من منطقة لواتة قنطرار وكان يعمل بالصياغة وقد اكتسب من عمله بالذهب مالا كثيراً . ولم يكتف بما حصل عليه من أموال طائلة من صياغة الذهب بل أراد أن يحصل أيضاً على الشهرة ولو كان ذلك على حساب دينه وعقيدته فنادى بمجموعة من المبادىء والمقالات التى تخرجه عن الإباضية وعن الإسلام حتى أن أبا يعقوب بن يوسف بن نفاث يقول : "أدركت جماعة من الشيوخ بمنطقة قسطيلية يصلون على جميع موتى أهل القبلة كلهم من المخالفين وغيرهم إلا أصحاب السكاك فإن من مات منهم جعلوا فى رجليه مرابط وجروه بها إلى موضع يوارونه فيه" (١)

قال أبو العباس الدرجينى "كان مشائخ السف (أى سلف الإباضية) تتقارب أقوالهم فى السكاك وأصحابه وتتفاوت فقائل بشركهم وقائل بنفاقهم ، وهذا المذهب قد فنى أصحابه" (٢) .

ويبدو لى أن الرجل استطاع بما يملك من ذهب ومال وفير أن يضم إليه نفر من ضعاف النفوس اعتنقوا مقالاته ومبادئه وهذه المبادىء أخرجتهم عن الإباضية وعن العقيدة الإسلامية . فعبد الله السكاك قال بعقائد غريبة عن مبادىء الإسلام السمحة منها : (٣)

١ - إنكار السنة والإجماع والقياس وزعم أن الدين كله مستخرج من القرآن الكريم . (٤)

٢ - زعم السكاكية أن صلاة الجماعة بدعة . (٥)

---

(١) ، (٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية لعلى يحيى معمر صفحة ٣١٦ .

(٣) المرجع السابق صفحة ٣١٧ . وفرق الإباضية الستة للمارغنى ص ٦ .

(٤) إنكار السنة إنكار للوحى ومنكر السنة كافر بإجماع الفقهاء .

(٥) أجمع الفقهاء على أن صلاة الجماعة مشروعة وأنه يجب إظهارها فى الناس فإن امتنعوا كلهم منها قوتلوا عليها ـ وصلاة الجماعة فى الفرائض سنة مؤكدة ، والجماعة فى النفل مباحة فقد ثبت أن رسول الله ﷺ صلى ركعتين تطوعاً ، وصلى معه أنس عن يمينه ، كما صلت أم سليم وأم حرام خلفه .

وقد ورد فى فضل صلاة الفرائض جماعة عدة أحاديث هامة فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : "آتى =

٣ – اعتبر السكاكية الأذان بدعة فإذا سمعوه قالوا نهق الحمار (١) .

ويرى السكاكية أنه لا تجوز الصلاة إلا بما عرف تفسيره من القرآن (٢) .

= النبي ﷺ وسلم رجل أعمى : فقال : يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل رسول الله أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له ، فلما ولى دعاه فقال له : "هل تسمع النداء بالصلاة" ؟ قال : نعم ، قال فأجب " (رواه مسلم)

وصلاة الجماعة سنة مؤكدة في حق كل مؤمن لم يمنعه عذر عن حضور الجماعة يقول رسول الله ﷺ : ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيها صلاة الجماعة إلا استحوذ عليهم الشيطان . فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" (رواه أحمد وأبو داود والنسائي ، والحاكم ، وهو صحيح) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها (أي صلاة الجماعة) إلا منافق معلوم النفاق) ولقد كان الرجل يؤدى به يهادى بين اثنين حتى يقام في الصف" (مسلم) .

انظر : المبحث الثامن "صلاة الجماعة" (في كتاب الصلاة) للمؤلف ص ٢١١ إلى صفحة ٢٢٩ .

(١) الأذان لغة الإعلام . والأذان شرعاً : هو الإعلام بدخول وقت الصلاة بألفاظ مخصوصة ... والأذان سنة مؤكدة تسبق الصلاة في حق الرجال ، لأداء الفرائض أو قضائها .

أما النساء فليس عليهن أذان ولا إقامة ، وإن أذن وأمن وحدهن فلا بأس ، وإن لم يفعلن ذلك فجائز .

وقد ثبت أصل الأذان بالكتاب الكريم والسنة المطهرة ... يقول تعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (الجمعة : ٩) ، ويقول تعالى : "وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً" (المائدة : ٥٨) .

وفي السنة المطهرة العديد من الأحاديث النبوية الحاثة على الأذان منها : عن مالك بن الحويرث ان النبي ﷺ قال : "إذا حضرت الصلاة فليؤذن بكم أحدكم وليؤمكم أكبركم" (رواه البخاري ومسلم وأحمد) .

وعن معاوية أن النبي ﷺ قال : "إن المؤذنين أطول الناس أعناقا يوم القيامة" (رواه أحمد ومسلم) .

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله يقول : "ما من ثلاثة لا يؤذنون ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان (أحمد) .

وفضل الأذان عظيم فعن أبي هريرة : رضي الله عنه أن رسول الله قال : "لو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ..." (رواه البخاري) .

وقيل في تفسير قوله عز وجل : "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً" نزلت في المؤذنين .

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة قالت : ما أرى هذه الآية إلا في المؤذنين "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً" (فصلت : ٣٣) من ذلك كله يتضح لنا ضلال رأى السكاكية في اعتبار الاذان بدعة .

انظر : كتاب الصلاة للمؤلف مبحث الأذان ص ٣٧ : ص ٥٤ .

(٢) هذا رأى خاطيء فلا يعد معرفة تفسير ما يقرأه المصلي من آيات شرطا من شروط الصلاة .

والقرآة فرض على من قدر عليها باللغة العربية وقراءة الفاتحة فرض في كل ركعة من ركعات الفرض والنفل لقول رسول الله : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" (رواه البخاري) . وقد ثبت أن =

ويرى السكاكية أن طعام الدرس [١] نجس لما يبـول عليـه من الدواب حين الدرس . والبقول والخضر نجسه إذا وضع فى أرضها السماد .

وهذا رأى شاذ لم يقل به أحد من علماء الإسلام .

لكن عبد الله السكاك أراد أن يشتهر بين الناس ويخرج عن جماعة الإباضية فقال بهذه الآراء الشاذة الغريبة ولهذا ليس عجيباً أن يحكم عليه الإباضيـة بالشرك أو النفاق ويخرجوه من دائرة مذهبهم . ثم لا يلبث أن يقضى على السكاكية وتنتهى بدعتهم بموت صاحبها عبد الله السكاك اللواتى .

= النبى ﷺ كان يقرأ الفاتحة فى كل ركعة من ركعات الفرض والنفل ، ولم يثبت عنه خلاف ذلك وقد قال رسول الله "لا تجزىء صلاة ولا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب" (رواه ابن خزيمة بإسناد صحيح ، ورواه ابن حبّان وأبو حاتم) . وقراءة الفاتحة على ما أشرنا من قبل ركن في جميع ركعات الفرض والنفل على الإمام المنفرد بخلاف المأموم فإنها لا تفترض عليه

ومن عجز عن القراءة كأمي وأخرس ، لا تكون فرضاً فى حقه

ومن يعرف القراءة بالعربية فلا تجوز القراءة بغيرها من اللغات لأن النبى وأصحابه كانوا لا يقرءون القرآن بغير العربية ولو خارج الصلاة ، وغير العربى لا يكون قرآناً ، فإن لم يحسن شيئاً من القرآن لزمه أن يقول . سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لحديث الرسول الله "إن كان معك قرآن فاقرأ وإلا فاحمده وكبره وهلله ، ثم اركع "رواه أبو داود ، والترمذى وحسنه) وقال الخطابى . الأصل أن الصلاة لا تجزىء ، إلا بقراءة فاتحة الكتاب ، ومعقول أن قراءة فاتحة الكتاب على من أحسنها دون من لا يحسنها ، فإذا كان المصلى لا يحسنها ويحسن غيرها من القرآن ، كان عليه أن يقرأ منه قدر سبع آيات لأن أولى ، الذكر بعد الفاتحة ما كان مثلها من القرآن الكريم ، وإن كان ليس فى وسعه أن يتعلم شيئاً من القرآن لعجز فى طبعه أو سوء فى حفظه أو عجمة فى لسانه أو عاهة تعرض له كان أولى الذكر بعد القرآن ما علمه النبى ﷺ مع التسبيح والتحميد والتهليل .

وقال النووى مذهبنا إنه لا يجوز قراءة القرآن بغير لسان العربى سواء أمكنه العربية ، أم عجز عنها ، وسواء أكان فى الصلاة أم فى غيرها ، فإن أتى بترجمة فى صلاة لم تصح صلاته، وإن لم يحسن القراءة فإن الترجمة ليست قرآنا . وبه قال الجمهور منهم مالك وأحمد وداود . انظر : كتاب الصلاة للمؤلف ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

(١) يقال درس البعير يدرس درساً : أى جرب جرباً قليلاً ، واسم ذلك الجرب الدرس . قال الأصمعى : إذا كان بالبعير شىء خفيف من الجرب قيل : به شىء من درس ، والدرس : الجرب أول ما يظهر منه ، واسم ذلك الجرب الدرس أيضاً .

(لسان العرب لابن منظور جـ ٢ ط دار المعارف صفحة ١٣٦٠ .

الفرقة السادسة الفرثية :

اتباع رجل أباضى من ورجلان بجنوب الجزائر اسمه "أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح" عرف عنه كثرة الاطلاع على الأفكار الخارجة على الإباضية وبخاصة أفكار أبو زياد أحمد بن الحسينية صاحب آراء "الحسينية" التى تعد عند الإباضية خروجاً عنهم وعن الإسلام . وجملة آراء الفرثية كما ذكرها المارغنى : (١)

(١) نجاسة الفرث (٢) وما طبخ فيه من طعام .

(٢) تحريم دم العروق ولو بعد غسل المذبح وكذلك دم الجوف .

(٣) تحريم أكل الجنين من الشاة المذبوحة .

(٤) نجاسة عرق الجنب وعرق الحائض .

(٥) لا تعطى الزكاة إلا لقرابة المزكى .

وهذه الآراء تعد مجرد اجتهادات فرعية خالف بها أبو سليمان بن يعقوب جمهور إباضية المغرب مما يجعلنا لا نستطيع أن نكفره باجتهاداته فى الفروع وإن كانت آراءه غريبة لكن يبدو لنا أنه أراد بمقالاته هذه أن يلفت الأنظار إليه ومن هنا فاننى اعتبر أنه مجرد مجتهد فى إطار المذهب الإباضى وليس صاحب فرقة وهو رأى بعض علماء الإباضية (٣) .

وقد ذكر أصحاب المقالات والملل والفرق والنحل الإسلامية فرقاً أخرى انشقت عن الإباضية ، والإباضية أنفسهم لا يعتبرون هذه الفرق التى ذكرها أصحاب المقالات فرقا إباضية من هذه الفرق الحفصية واليزيدية والحارثية والإبراهيمية والميمونية والواقفية والضحاكية والبيهسية والشبيبية . وأنا حين أشير فى هذا الكتاب إلى هذه الفرق إنما

---

(١) مخطوط الفرق الست وما زاغت عن الحق للمارغنى ورقة ٧ .

(٢) الفرث : السرجين مادام فى الكرش قال ابن سيده : الفرث والفراثة : سرقين الكرش .

(٣) مثل على يحيى معمر فى كتابه الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٣١٩ .

أنكرهم لأبين للقارئ أن أفكار هذه الفرق التى ذكرها كتاب المقالات تختلف تمام الاختلاف عن مبادىء ومقالات الإباضية ، فعقائدها بعيدة كثيراً عن عقائد الإباضية وأصولها . ومن الظلم أن نحسب هذه الفرق على الإباضية . لأننا كما أشرنا من قبل وقلنا إن الإباضية من أقرب الفرق إلى الجماعة الإسلامية وإلى مبادىء الإسلام والأمانة العلمية تقتضى منا أن نذكر رؤية أصحاب المقالات للفرق الإباضية من وجهة نظرهم .

ثم بعد ذلك نشير إلى رأينا فيما كتبه هؤلاء العلماء بأمانة وحيدة علمية خالصة .

ثانيا : فرق الإباضية عند أصحاب المقالات :

الفرقة الأولى : الحفصية نسبة إلى رجل يقال له "حفص بن أبى المقدام" .

ولا تنكر كتب الفرق الإسلامية شيئاً عن هذا الرجل ولا ذكر له فى المصادر الإباضية وكل ما تذكره كتب الفرق الإسلامية أن "حفص بن أبى المقدام" [١] هو إمام الحفصية من الفرق الإباضية وقد زعم حفص هذا " أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده ، فمن عرف الله سبحانه ثم كفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار أو عمل بجميع الخبائث من قتل النفس واستحلال الزنا وسائر ما حرم الله من فروج النساء فهو كافر برىء من الشرك ، وكذلك من اشتغل بسائر ما حرم الله سبحانه مما يؤكل ويشرب فهو كافر برىء من الشرك ، ومن جَهِل الله سبحانه وأنكره فهو مشرك فيبرىء من حفص جل الإباضية إلا من صدقه منهم . [٢]

ومن ذلك نلاحظ أن الحفصية زعموا أن بين الشرك والإيمان خصلة وسطى . هى معرفة الله تعالى وحده ، والخصلة الوسطى عندهم مسألة نظرية ، لأنه إذ يوجد الإيمان بالتوحيد ، يوجد الإيمان بالكتب والرسل .

---

(١) المقالات جـ ١ ص ١٧٠ ، الملل للشهرستانى ١ / ١٨٣ . التبصير فى الدين للاسفرايينى ص ٥٧ ، الحور العين للحميرى ص ١٧٥ .

(٢) مقالات جـ ١ ص ١٧ .

أما آراء الحفصية فى السياسة فى الخلافة فهى شديدة الغلو أيضاً فهم مثلاً لا يقرون خلافة عثمان وعداوتهم لعلى شديدة حتى أنهم أولوا القرآن فى شدة عدائهم لعلى كرم الله وجهه مع أن هذه الفرقة لم يعرف لها أى دور سياسى فى تاريخ الحركة الخارجية أو الإباضية .

يقول عنهم الإمام الأشعرى [١] "وتأولوا فى عثمان نحو ما تأولت الشيعة فى أبى بكر وعمر ، وزعم "حفص بن أبى المقدام" أن عليا هو الحيران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا) ٦ : ٧١ وأن أصحابه الذين يدعونه إلي الهدى أهل النهروان (المحكمة) وزعم أن عليا هو الذى أنزل الله سبحانه فيه : (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) ٢ : ٢٠٤ .

وإن عبد الرحمن بن ملجم (قاتل على) هوالذى أنزل الله فيه (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) ٢ : ٢٠٧ . ثم قال حفص بعد ذلك : "الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله ، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله" .

ومن فرق الإباضية أيضاً : اليزيدية ، وهى أشد فرق الخوارج غلواً ، ولهذا فهم لا يعدون عند كتاب الفرق الإسلامية من فرق الإسلام" [٢] .

وصاحب هذه الفرقة هو يزيد بن أنيسة . وهو يلتقى مع الإباضية من ناحية الأفكار الخاصة بالإمامة فقد قال يزيد بن أنيسة "بتولىَّ المحكمة الأولى . ممن بعدهم الا الإباضية فإنه يتولاهم" [٣] .

ويبدو لنا أن لسكنى يزيد بن أنيسة فى جفال حلوان [٤] تأثير على غلوه فى عقائده حيث توجد هناك بقايا العقائد الفارسية القديمة مما جعله يقول بعقائد متطرفة لا تمت

---

(١) مقالات جـ ١ ص ١٧٠ .

(٢) الفرق بين الفرق جـ ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى ١ / ٧١٣ .

(٤) تقع على آخر حدود السواد مما يلى الجبال بينها وبين بغداد خمسة مراحل . ياقوت : المشترك ص ١٤٢ .

بصلة أبداً لعقائد الإباضية المعتزلة فهو يقول مثلاً "بأن الله سيبعث رسولاً إلى العجم منهم وينزل عليهم كتاباً جملة واحدة ، فترك شريعة محمد ﷺ ، ودان بشريعة غيرها ، وزعم أن ملة ذلك النبي الصابئة ، وليس هذه الصابئة التي عليها الناس اليوم وليس هم الصابئين الذين ذكرهم الله في القرآن ولم يأتوا بعد .

وتولى من شهد لمحمد ﷺ بالنبوة من أهل الكتاب ، وان لم يدخلوا في دينه ولم يعملوا بشريعته ، وزعم انهم مؤمنون" . (١)

وجل الإباضية تبرأوا من اليزيدية ، وقال ابن الأثير عن اليزيدية "هؤلاء أكفر الخوارج" . (٢)

والفرقة الثالثة من فرق الإباضية هم الحارثية أصحاب الحارث بن يزيد الإباضي . (٣)

وقد يكون هذا الحارث هو ذات الرجل الذي طرده ابن أبي كريمة من مجالس الإباضية في البصرة لقوله في القدر . قال الشماخي "وجمع حاجب وأبو عبيدة الناس فقالا إن حمزة وعطية والحارث أحدثوا علينا فمن آواهم فهو الخائن المتهم ... لأنهم أخذوا بقول أهل القدر فبرىء منهم أبو عبيدة وحاجب" (٤) .

ومن المعروف أن الحارثية قالوا في القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا فيه سائر الإباضية وزعموا "أن الاستطاعة قبل الفعل" (٥) ولهذا فإننا نلاحظ أن "سائر الإباضية أكفروا الحارثية في ذلك لأن جمهور الإباضية على القول بأن الله خالق أفعال العباد أو الاستطاعة مع الفعل" (٦) .

---

(١) مقالات : جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) ابن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب ٣ / ٢٠٩ .
(٣) الاسفراييني ك التبصير في الدين . ذكر ان اسم أبيه مزيد بدلاً من يزيد ص ٥٧ .
(٤) الشماخي : السير ص ١٢٠ .
(٥) الأشعري : مقالات جـ ١ ص ١٧١ .
(٦) البغدادي : الفرق بين الفرق ١٠٥ .

وينسب إليهم الشهرستاني القول بطاعة لا يراد بها الله تعالى ، بينما البغدادي والأشعري يجعلان القائلين بذلك فرقة مستقلة من فرق الإباضية والفرقة الرابعة من الإباضية هم من يقولون "بطاعة لا يراد الله بها على مذهب أبي الهذيل العلاف المعتزلي ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعاً لله إذا فعل شيئاً أمره الله به ، وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ولا أراده به" (١) بينما أهل السنة لا يذهبون إلى ذلك إلا في النظر الأول فإن صاحبه إذا استدل به كان مطيعاً لله في فعله ، وإن لم يقصد به التقرب إلى الله تعالى" (٢) .

ولقد كان من الإباضية : الابراهيمية ، والميمونية ، والواقفية والضحاكية ، والمسألة باختصار أن رجلاً يقال له ابراهيم من الإباضية اختلف مع رجل يقال له ميمون – غير ميمون صاحب الميمونية من العجاردة – في جواز بيع جارية مؤمنة إلى الكفرة ، فأحل ذلك ابراهيم وتبرأ منه ميمون ، وتوقف في الأمر آخرون فصاروا ابراهيمية وميمونية وواقفية وتبع ابراهيم على إجازة هذا البيع قوم يقال لهم الضحاكية . (٣) .

وأجازوا نكاح المسلمة من كفار قومهم في دار التقية ، ويفصل لنا الأشعري القصة فيقول "وكان رجل من الإباضية يقال له "ابراهيم" أفتى بأن بيع الاماء في مخالفيهم جائز فبرىء منه رجل يقال له ميمون "وممن استحل ذلك ، ووقف قوم منهم فلم يقولوا بتحليل ولا بتحريم وكتبوا يستفتون العلماء منهم في ذلك ، فأفتوا بأن بيعهن حلال ، وهبتهن حلال في دار التقية ، ويستتاب أهل الوقف من وقفتهم في ولاية ابراهيم ومن أجاز ذلك وأن يستتاب ميمون من قوله ، وأن يبرءوا من امرأة كانت معهم كانت وقفت فماتت قبل ورود الفتوى ، وأن يستتاب ابراهيم من عذره لأهل الوقف في جحدهم الولاية عنه وهو مسلم يظهر اسلامه ، وأن يستتاب أهل الوقف من جحدهم البراءة عن ميمون هو كافر يظهر كفره ، فأما الذين وقفوا ولم يتوبوا من الوقف وثبتوا عليه سموا "الواقفة" وبرئت الخوارج منهم ، وثبت ابراهيم على رأيه في التحليل لبيع الاماء من المخالفين وتاب ميمون .

وافترقت فرقة من "الواقفية" وهم "الضحاكية" فأجازوا أن يزوجوا المرأة المسلمة

---

(١) الأشعري : مقالات ص ٢٧٢ جـ ١ .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٠٥ ، والاسفراييني : التبصير : ص ٣٥ .

(٣) لعل صاحبهم هو الضحاك بن قيس الخارجي المتوفى سنة ١٢٨ هـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ٢٨ .

عندهم من كفار قومهم في دار التقية ، كما يَسَعُ الرجل منهم أن يتزوج *المرأة الكافرة* من قومه في *دار التقية* ، فأما في *دار العلانية* – وقد جاز حكمهم فيها – فإنهم لا يستحلون ذلك فيها .

ومن الضحاكية فرقة وقفت فلم تبرأ ممن فعله ، وقالوا : لا نعطى هذه المرأة المتزوجة من كفار قومنا شيئاً من حقوق المسلمين ولا نصلي عليها إن ماتت ، ونقف فيها ، ومنهم من برىء منها (١) .

وبعض كتاب الفرق يرون أن من الإباضية – فرق البيهسية أتباع أبى بيهس هيصم بن جابر (٢) .

وقد قال البيهيسية فى المسألة التى وقع فيها الخلاف بين الابراهيمية والميمونية إن ميموناً كفر بأن حرم بيع الأمة فى دار التقية من كفار قومنا ، وكفرت الواقفة بأن لم يعرفوا كفر ميمون وصواب ما ذهب إليه ابراهيم ، وقد كفر ابراهيم بأن لم يتبرأ من الواقفة (٣) ، وحين ورود كتاب نافع بن الأزرق إلى المحكمة وفيهم عبد الله بن إباض وأبو بيهس مخالفته لنافع ولابن أباض معا (٤) وزعم أبو بيهس (٥) "أنه لا يسلم على أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسوله ومعرفة ما جاء به محمد جملة ، والولاية لأولياء الله سبحانه ، والبراءة من أعداء الله ، وما حرم الله سبحانه بما جاء فيه الوعيد ، فلا يسع الإنسان إلا علمه ومعرفته بعينه وتفسيره ، ومنه ما ينبغى أن يعرفه باسمه ولا يبالى ألا يعرف تفسيره وعينه حتى يبتلى به ، وعليه يقف عندما لا يعلم ولا يأتى شيئاً إلا بعلم" .

---

(١) مقالات : جـ ١ ص ١٧٥ ، وص ١٧٦ .

(٢) قال ابن قتيبة : "البيهسية من الخوارج تنسب إلى أبى بيهس من بنى سعد بن ضبيعة ابن قيس ، واسمه هيصم بن جابر ، وكان عثمان بن حبان المزى والي المدينة قطع يديه ورجليه ، المعارف ٢٦٧ .

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٠٨ .

(٤) وقال بيهس "أنا أقول إن أعداءنا كأعداء رسول الله تحل لنا الإقامة فيهم ، كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجرى فيها ، وأزعم أن مناكحهم أو مواريثهم تجوز ، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ، وان حكمهم عند الله لحكم المشركين ، وأن الدار دار كفر ، والاستعراض فيه جائز ، وان أصيب من الأطفال فلا حرج" . الكامل : للمبرد جـ ٢ ص ١٧٩ .

(٥) الأشعرى : مقالات : جـ ١ ص ١٧٨ .

وقال بعض البيهسية : "من واقع زنا لم نشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الإمام أو الوالي ويحد "فوافقهم على ذلك طائفة من الصفرية ، إلا أنهم قالوا : نقف فيهم ، ولا نسميهم مؤمنين ولا كافرين .

وقالت طائفة من البيهسية : إذا كفر الإمام كفرت الرعية ، وقالت : الدار دار شرك ، وأهلها جميعاً مشركون ، وتركت الصلاة إلا خلف من تعرف ، وذهبت إلى قتل أهل القبلة وأخذ الأموال واستحلت القتل والسبى على كل حال .

وقالت البيهسية : الناس مشركون بجهل الدين ، مشركون بمواقعة الذنوب ، وإن كان ذنب لم يحكم الله فيه حكما مغلظا ولم يوقفنا على تغليظه فهو مغفور ، ولا يجوز أن يكون أخفى عنا فى ذنوبنا ولو جاز ذلك جاز فى الشرك .

وقالوا التائب فى موضع الحدود وفى موضع القصاص والمقر على نفسه يلزمه الشرك إذا أقر من ذلك بشىء ، وهو كافر ، لأنه لا يحكم بشىء من الحدود والقصاص إلا على كل كافر يشهد عليه بالكفر عند الله" [١] .

ومن البيهسية فرقة يقال لها "العوفية وهم فرقتان : فرقة تقول : من رجع من دار هجرتهم ومن الجهاد إلى حال القعود نبرأ منهم .

وقال البغدادى "هؤلاء يعرفون بالشبيبية لانتسابهم إلى شبيب بن يزيد الشيبانى ، ويعرفون بالصالحية أيضاً لانتسابهم إلى صالح بن مسرح الخارجى ، وكان شبيب بن يزيد الخارجى من أصحاب صالح ، ثم تولى بعده على جنده" [٢]

ويقول المقريزى "أن الشبيبية كانوا على ما كانت عليه المحكمة الأولى إلا أنهم انفردوا عن الخوارج بجواز إمامة المرأة وخلافتها ، وقد استخلف شبيب أمه غزالة فدخلت الكوفة [٣] وقامت خطيبة وصلت الصبح بالمسجد الجامع ، فقرأت فى الركعة الأولى البقرة ، وفى الثانية

---

(١) مقالات : ص ١٨١ .

(٢) مقالات : ص ١٨٢ .

(٣) وقال بعض البيهسية : السكر من كل شراب حلال موضوع عمن سكر منه ، وكل ما كان فى السكر من ترك الصلاة أو شتم الله سبحانه وتعالى فهو موضوع لا حد فيه ولا حكم ، ولا يكفر أهله بشىء من ذلك ماداموا فى سكرهم .

وقالوا إن الشرب حلال الأصل ولم يأت فيه شىء من التحريم . لا فى قليله ولا فى إكثار أو فى سكر .

آل عمران" (١) .

ومن المعروف أن شبيباً لم يحدث أقوالاً كثيرة ، فلما مات صالح أوصى إلى شبيب علي ما قلنا ــ فخرج شبيب بالموصل فى خلافة عبد الملك بن مروان ، ودارت رحى الحرب بينه وبين جيوش الخليفة وكان له النصر على خمسة قواد لخمسة جيوش منها ، ثم خرج يريد الأهواز فغرق فى دجيل عام ٧٧ هـ . وهو يقول : (ذلك تقدير العزيز العليم) . (٢)

لكن مما أبدعه الشبيبية "أنهم زعموا أن الرجل يكون مسلماً إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وتولى أولياء الله وتبرأ من أعدائه ، وأقر بما جاء من عند الله جملة ، وإن لم يعلم سائر ما افترض الله سبحانه عليه مما سوى ذلك أفرض هو أم لا ، فو مسلم حتى يبتلى بالعمل به فيسأل . وفارق الشبيبية "الواقفة" . وقالوا فى أطفال المؤمنين بقول الثعلبية : "أنهم مؤمنون أطفالا وبالغين حتى يكفروا ، وإن أطفال الكفار كفار أطفالاً وبالغين حتى يؤمنوا ، وقالوا بقول المعتزلة فى القدر" (٣) .

والشبيبية يسمون مرجئة الخوارج لما ذهبوا إليه من الوقف فى بعض أمور فعلها صالح وحكم فيها ، فبرئت من صالح فرقة فسميت الراجعة . وصوب بعض الخوارج رأى صالح فيها ، ووقف "شبيب" فى صالح والراجعة ، وقال لا ندرى ما حكم به صالح كان حقاً أو باطلاً (٤) وحق ما شهدت به الراجعة أم جور ، فبرئت الخوارج منهم وسموهم "مرجئة الخوارج" .

وبعد ــ فهذه أهم فرق الإباضية عند أصحاب المقالات أما الإباضية فينكرون هذه الفرق إنكاراً تاماً وينبغى أن أشير فى النهاية إلى أن مؤلفات الإباضية المشارقة من القرن

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١١٤ ، ص ١١٥ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٢ .
(٣) مقالات جـ ١ ص ١٧٩ .
(٤) وأما بعض الإباضية فيذهب إلى أن الذين برئوا من صالح كفروا وأن من وقف فى كفرهم كفر وأحسنوا الظن لشبيب ، وقالوا : لم يكن مثله يبرأ منه ، وقالوا : ويدل على ذلك أنه كان معه حتى قتل ، فهو عندهم على أصل إيمانه "مقالات جـ ١ ص ١٨٨ .

الثامن الهجرى كثيرة يمكن من خلالها لأى باحث موضوعى جاد أن يتعرف على تراث الإباضية وفرقهم . (١)

---

(٢) توجد قائمة بذكر مؤلفات الإباضية المشارقة من القرن الثامن الهجرى وأشار إليها الأستاذ مهدى طالب هاشم فى كتابه عن الحركة الإباضية فى المشرق العربى ص ٣٢٠ وهى عبارة عن رسالة بعث بها أبو القاسم البرادى إلي أحد العلماء الإباضية ويعد فإن الرسول لم أفهم عنه مرادك من تسمية التواليف فمن ذلك تواليف أصحابنا المشارقة صفة أحداث عثمان بن عفان رأيته ولم أعرف مؤلفه . وكتب فيه أخبار صفين وأخبار أهل النهر وقتلهم أكثر آثاره عن عبد الله بن يزيد الفزارى رأيته ولم أعرف مؤلفه ، وكتاب عبد الله بن أباض كتب به إلي عبد الملك بن مروان جواباً عن كتابه اليه يشتمل على النقض والرد وتبيين الاعتقادات والاحتجاج بآى القرآن .
وكتاب سالم بن الحطينة الهلالى فى العقائد والنقض والاحتجاج وكتاب شبيب بن عطية تكلم فيه عن الشكاك والمرجئة والذى اعرف من آثار قومنا شبيباً صفرى لكن كلامه في الكتاب كلام موافق كتب به إلى عبد السلام .
وكتاب الفرائض لابن عبد الجبار وقفت عليه ، والمسند وهو حديث الربيع وكتاب الحجة على الخلق فى معرفة الحق كتاب ضمام رواية أبى صفرة عبد الملك بن صفرة عن الربيع عن ضمام ، وكتاب آخر فى الفروع رواية الهيثم بن الهيثم عن أشياخه عن الربيع .
كتاب أبى سفيان يشتمل على الأخبار والفقه والكلام والعقائد وقال الإمام أفلح رضى لله عنه عليكم بدراسة كتب أهل الدعوة لا سيما كتب أبى سفيان يشتمل على الاخبار وعهده الذى كتب فيه إلى الإمام عبد الله يحيى الكندى .
ومدونة أبى غانم التى قيد سماعها عن تلاميذ أبى عبيدة تشتمل على عدة كتب وقفت منها على كتاب الصيام وكتاب الشهادات وكتاب الأقضية والأحكام وكتاب النكاح ، وكتاب محمد بن محبوب وقفت على جزء واحد من أجزائه فى جملته سبعون جزء أذكر ذلك عن الشيخ أبى صالح ابى بكر بن قاسم البراسنى . وجامع أبى جعفر جابر محمد بن جعفر الأزكوى يكون سفرين كبيرين فى الفروع ومختصر الشيخ أبى الحسن وهو سبوع اللحم أخبرنى بذلك الثقة الحافظ عطا ربيع بن أحمد . وجامع الشيخ أبى الحسن الموافق عليه وذكره لى هذا الشيخ أيضاً . فقال جامع الشيخ أبى الحسن من جملة الكتب الذى وصل بها الشيخ أبو موسى عيسي بن زكريا البراسنى من عمان إلى الجزيرة (جزيرة جربة) .
وكتاب مدح العلم وأهله لأبى محمد عبد الله بن محمد بركه وهو جامعة سفر كبير ، وكتاب التقييد له أيضاً وقفت عليه .
وكتاب الدعائم الأصل ذكره لى بعض أصحابنا العمانيين بمكة شرفها الله سنة خمس وسبعين من مآتنا هذه أن عدة المثبتة عددهم فى هذا الكتاب بعمان ، وسير الشيخ أبى محمد الحسين على بن محمد لبسيوى وقفت على ثلاثة ... منها ما هو إلى أهل المغرب كلها فى النقض والردود وتسمية أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم .
وكتاب التخصيص لأبى بكر الأزكوى ، وكتاب للذكائر والحجج وهو المعروف بالحضرومى .
وكتاب الضياء يذكرون أنه وصل المغرب من النسخة الكبيرة التامة نيف وأربعون جزءاً ورأيت فيه ثلاثة =

وبعد هذا العرض لفرق الإباضية من وجهة نظر كتاب المقالات والملل والنحل يمكنني أن أقول بأنني لا أستطيع أن أتهم بالشطط والغلو في آرائهم علماء أجلاء تعلمنا على كتبهم واستفدنا منها فائدة عظيمة ، لكن أستطيع أن أقول إنه إذا كان الإباضيون أنفسهم لا يعتبرون هذه الفرق من جماعتهم ، بل ويتبرءون منهم ، وهم بالطبع أدرى الناس بفرقهم فمن الأفضل لنا ألا نعتبر هذه الفرق من فرق الإباضية . كذلك يمكننا أن نفسر السبب في إدراج كتاب المقالات لهذه الفرق ضمن الإباضية وجود ملامح ضعيفة من مبادىء الإباضية عند بعض هذه الفرق أو لأن بعض أصحابها عاشوا في ظل حكم الدولة الإباضية مثل الدولة الرستمية ببلاد المغرب فاعتبرهم كتاب المقالات – على هذا الأساس – إباضيون – أو لأنهم تعودوا إدراج الإباضية ضمن فرق الخوارج ، وهذه الفرق – التي اعتبرها كتاب المقالات إباضية بمبادئها الخارجة عن الفكر الإسلامي الصحيح تعد إحدى إفرازات الخوارج الطبيعية .

وإذا كان هناك عتاب رقيق لهذه المقالات فهو خاص بأمر هام للغاية وهو أننا لا نجد ذكراً لكثير من أئمة الإباضية كالإمام جابر ابن زيد ، والربيع بن حبيب ولعل السبب في ذلك هو أن معظم هذه المقالات نقلت عن مصادر غير إباضية أو لأن البعض يعدهما غير إباضيين .

= أسفار كل سفر يشتمل على أجزاء في التوحيد والصلاة والطلاق والحيض والبيوع والأحكام وغير ذلك وهو من أثر تصنيف أهل الدعوة . وكتاب النور مختصر عن كتاب الضياء .

وكتاب تفسير الخمسمائة آية في الحلال والحرام لأبي المؤثر الصلت بن الخميس وكتاب الحل والإصابة لمحمد بن وصاف في سفرين كبيرين أو في أربعة صغار وسيرة الإمام عبد الله بن يحيى وما معها من خطب أبي حمزه المختار بن عوف الأزدي لا أدري من ألفه .

وكتاب أشعار الإمام عبد الله بن يحيى يذكرونه عندهم ، ويذكرون في "الهامة" وأما أنا فلم أقف عليه .

ويذكرون من تآليف أهل العصر عندكم كتاب يكشف الغمة في اختلاف الأمة يقال أنه لم يرد لأهل الدعوة مثله ويذكرون المقطعات لأبي سعيد العماني ولم أر منها شيئاً .

وذكر الشيخ أبوالعباس أحمد بن الشيخ سعيد في كتابه عن الشيخ أبي العباس أحمد بن بكر قال كنت أقرأ على الشيخ سعيد وأحضر مجالسه فأول ما وقفت فيه المذاكرة عنده فنظرت في أثناء ذلك هناك من الكتب التي وصلت من المشرق فإذا نحو من ثلاثة وثلاثين ألف جزء فتخيرت أكثرها فائدة فقرأته حينئذ والله أعلم .

المبحث الثالث

دور أعلام الإباضية فى تطور المذهب الإباضى

أولا : عبد الله بن أباض

الحقيقة أننا إذا تتبعنا المصادر غير الإباضية تتبعاً دقيقاً لوجدنا أن أغلب هذه المصادر كالبغدادى [١] ، والمبرد [٢] ، وابن قتيبة [٣] ، والاسفرايينى [٤] تذكر أن الإباضية ينتسبون إلى عبد الله بن أباض ، وأنه إمام هذه الطائفة . [٥] .

لكن الإباضية أنفسهم والمصادر الإباضية تكاد تجمع على ان ابن اباض لم يكن امامهم الحقيقى ومؤسس دعوتهم وإن كان من علمائهم ورجالهم البارزين فى التقوى والصلاح ولهذا السبب فإنها أغفلت الحديث عن كثير من جوانب حياة ابن اباض ونشاطه . ويعتبر الإباضية القدامى منهم والمحدثون ، جابر بن زيد إمامهم الأكبر ومؤسس دعوتهم . ولم يكن ابن أباض إلا واحدا من أتباع فرقته ولم يصدر فى شىء من أفعاله وأقواله إلا بأمر ذلك الإمام وإرشاده" [٦] .

ولا يستطيع أحد أن يغفل من القول بأن اسم الإباضية مشتق من اسم عبد الله بن أباض المرى من بنى عبيد بن مقاعس التميمى [٧] .

وقد ولد عبد الله بن إباض فى عهد معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ) وتوفى

---

(١) البغدادى عبد القادر بن طاهر الفرق بين الفرق صفحة ٨٢ طبعة بيروت ١٩٧٣ .

(٢) المبرد ، محمد بن يزيد الكامل فى اللغة جـ ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم - المعارف تحقيق ثروت عكاشة القاهرة ١٩٦٠ .

(٤) الاسفرايينى : مظفر الدين - التبصير في الدين ص ٥٦ القاهرة ١٩٦٢ .

(٥) ينتمى عبد الله بن أباض إلى قبيلة تميم بالبصرة وكانت من أقوى القبائل البصرية وأكثرهم عددا وعدة . وتتلمذ فى البداية على عدد من زعماء المحكمة الأولى منهم عبد الله بن وهب الراسى إمام المحكمة الأول وزعيمهم فى معركة النهروان . لكن عبد الله بن أباض لم يشترك فى حروب المحكمة ضد الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٦) خليفات ، د. عوض ، نشأة الحركة الإباضية ١٩٧٨ ، نشر الكتاب بدعم من الجامعة الأردنية .

(٧) الدرجينى : طبقات المشائخ بالمغرب جـ ٢ ص ٢١٤ .

حوالى عام ٨٥ هـ أى إلى زمن عبد الملك بن مروان ، وقد عاصر عبد الله بن الزبير ونافع بن الأزرق .

ويعد ابن إباض من أتباع جابر بن زيد . وقد اشترك ابن إباض فى الدفاع عن الكعبة الشريفة إلى جانب عبد الله بن الزبير ضد الجيش الأموى بقيادة الحصين بن نمير السكونى الذى خلف القائد الأموى مسلم بن عقبة عام ٦٣ هـ - ٦٨٢م . وكان قد ذهب إلى مكة مع بعض قادة المحكمة مثل نجدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق وغيرهم مدفوعين برغبتهم وحماسهم فى الدفاع عن البيت الحرام على الرغم من اختلافهم فى المبادىء مع ابن الزبير" (١) .

وتعتبر المصادر الإباضية جابر بن زيد هو مؤسس مذهب الإباضية وفقيه المذهب وتذكر "أن ابن أباض كان يصدر فى كل أفعاله وأقواله عن جابر بن زيد . ولكنها فى الوقت نفسه تذكر أن ابن إباض كان رئيس الإباضية بالبصرة" (٢) .

ويرى البعض أن الأمويين كانوا لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر حتى لا يجذبوا إليهم الأنظار ، ولا يبدون فى هالة جابر المشرقة ، فتميل إليهم النفوس ، فنسبوهم إلى عبد الله بن أباض وهو أقل منزلة من جابر فى العلم وإن كان لا يقل عنه فى التقوى والورع ، والصلاح" (٣) .

وقد عرف عبد الله بن إباض بالرسالة التى أرسلها إلى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) . وفيها يوضح آراءه ونظراً لأهمية هذه الرسالة فقد ألحقناها بملحق هذا الكتاب ... والشىء الذى أخذه على ابن إباض فى هذه الرسالة هو قسوته على ذى النورين الإمام الجليل عثمان بن عفان الذى وصفه رسول الله ﷺ بأنه اشد أمته حياء ، وأنه أحد العشرة المبشرين بالجنة .

---

(١) خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ٧٧ نقلا عن الطبرى ، جـ ٥ ص ٥٦٣ ، ٥٦٦

(٢) المرجع السابق ص ٧٩ .

(٣) على محمد دي الإباضى : تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ . طبعة القاهرة ١٩٦٣ .

ففى هذه الرسالة يقول ابن إباض للخليفة عبد الملك بن مروان [١] "أما بعد : ... وكتبت إلى تحذرنى الغلو فى الدين وإنى أعوذ بالله من الغلو فى الدين ، وسأبين لك ما الغلو فى الدين إذا جهلت فإنه ما كان يقال على الله غير الحق ، ويعمل بغير كتاب الذى بين لنا ، وسنة نبيه التى سن ، وقال الله تعالى "يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق (١٧١ - النساء) كما فعل عثمان والأئمة من بعده وأنت على طاعتهم وتجامعهم على معصية الله وتتبعهم وقد اتبعوا أهواءهم واتبعتهم انت عليها وقال الله عز وجل "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل " (المائدة ٧٧) فهؤلاء أهل الغلو فى الدين .

ومن خلال هذا النص نرى أن تقييمه لسيرة سيدنا عثمان جانبها عدم الصواب ذلك أن مذهبنا التوقف في أمر الصحابة وخصوصاً العشرة المبشرين بالجنة .

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم حين قال صلوات ربى وسلامه عليه "عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى" وحذرنا من إيذائهم بالكلام " لا تؤذونى فى أصحابى فلو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبا ما بلغ من أحدهم ولا نصيفه" وقال أشرف الخلق ﷺ "إن الله قد اختار لى أصحاباً فجعل لى منهم أصهاراً وأختاناً ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" .

ولقد كان عثمان بن عفان ممن يحبهم رسول الله ﷺ حبا جماً ولهذا زوجه ابنتيه رقية ثم أم كلثوم بعد وفاة رقية وقال له رسول الله ﷺ "لو أن لى أربعين بنتا لزوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا تبقى منهن واحدة" .

واذا اشتد بأحدنا العناد فعليه أن يقتدى بعبد الله ابن عمرو حين سئل عن الإمامين عثمان وعلى رضى الله عنهما فتلي قول الله تعالى "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون" ولا أقل من أن يقتدى بقول الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز حين سئل عما شجر بين الصحابة فقال فى روعه وأدب جم "تلك دماء طهر الله

(١) ابن حميد الحارثى : العقود الفضية فى أصول الإباضية ص ١٣٤ وما بعدها .

منها أيدينا فلا نلوث بها السنتنا" .



ثانيا : جابر بن زيد الأزدى :

يعد جابر بن زيد المؤسس الحقيقى للمذهب الإباضى فهو فقيه المذهب وإمامه وعالمه الأصيل . ويعد من المحدثين الكبار فقد روى العديد من الأحاديث النبوية الشريفة وتتلمذ على كثير من الصحابة ومنهم حبر الأمة عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأنس بن مالك . وأم المؤمنين عائشة . وتبعه كثير من علماء الإباضية كعبد الله بن أباض التميمى ومرداس بن حيدر وأبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة والإمام جابر بن زيد "كان الإمام الروحى وفقيه الإباضية ومفتيهم ، وكان بالفعل هو الشخص الذى بلور الفكر الإباضى بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب الإسلامية ، وكان ابن أباض المسئول عن الدعوة والدعاة فى شتى الأقطار وقد اكتسب ثقة أقرانه لعلمه ودينه ، فكانوا لا يصدرون فى شىء إلا بعد مشورته ـ واتفقوا (أى الإباضية) على أن يتولى جابر بن زيد أمرهم وتنظيم دعوتهم منذ المراحل الأولى لتطور الدعوة فى البصرة وإيماناً منهم بذكائه واعتماداً منهم على اطلاعه الواسع وتحصيله العميق فى العلوم الدينية وخاصة ما يتعلق بالتفسير وعلوم الحديث" (١) .

وجابر هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدى الجوفى (٢) البصرى من ولد عمر بن اليحمد الأزدى (٣) . ولد فى مدينة الفرق بالقرب من مدينة نزوى فى بلاد عمان .وكان مولده بين عامى ١٨ ، ١٢ هـ على ما تذكر المصادر الإباضية . وتوفى على أرجح الأقوال حوالى عام ٩٣ هـ بالبصرة .

وكان جابر منذ صغره مولعاً بالعلم والمعرفة ولعل هذا هو سر ذهابه مع أسرته إلى

---

(١) د. عوض خليفات ، نشأة الحركة الإباضية ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٢) الجوفي نسبة الى درب الجوف فى البصرة .

(٣) قبيلة اليحمد الأزدية من قبائل عمان الكبيرة ، وقد انتقل جابر مع أسرته من الفرق بعمان إلى درب الجوف بالبصرة ، وكانت البصرة وقتذاك من أهم مراكز العلم والمعرفة فى الدولة الإسلامية .

البصرة حيث نهل من علمها ورحل إلى المدينة ومكة ودرس على كبار الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة حبر الأمة عبد الله ابن العباس . يقول جابر "أدركت سبعين بدريا فحويت ما عندهم إلا البحر [١]" [٢] فقد كان ملازماً ملازمة تامة لعبد الله بن عباس وأخذ عنه الكثير ... وقد قال فيه ابن عباس "لو أن أهل البصرة نزلوا عن قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عما في كتاب الله" [٣] .

وكان ابن عباس يوجه سائلية إلى جابر بن يزيد ويقول لهم "اسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه" [٤] .

وقال عنه قتادة بن دعامة السدوسي إنه "عالم العرب وأعلم أهل الأرض" [٥] .

وكان عمرو بن دينار البصري يقول "ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد" [٦] وكان "بعض الناس ممن يسكنون خارج البصرة يكتبون إليه مستفسرين عن مسائل ومشاكل فقهية فيجيبهم عليها" [٧] .

وتحاول بعض المصادر السنية [٨] إنكار صلة جابر بن زيد بالإباضية على أساس أن زيداً من المحدثين الثقات ولهذا لا ينبغي الصاق تهمة "الإباضية" به حتى لا يعد عندهم من المحدثين المجروحين لا العدول فعلى شرط أئمة الحديث وعلماء الجرح والتعديل أنهم يرفضون روايات أصحاب المذاهب والبدع [٩] ومن أجل ذلك شكوا في نسبته إلى الإباضية . لكن

---

(١) يقصد بالبحر عبد الله بن عباس لأنه لم يكن من أصحاب بدر .
(٢) الحارثي : (سالم بن حمد) العقود الفضية في أصول الإباضية دار اليقظة العربية في سوريا ولبنان صفحة ٩٤ .
(٣) البخاري : (محمد بن إسماعيل) ، التاريخ الكبير ، جـ ١ ص ٢٠٤ طبعة حيدر أباد ١٣٨٢ هـ .
(٤) الشماخي : (أحمد بن سعيد) ، كتاب السير ، ص ٧٠ طبعة حجرية / القاهرة ١٨٨٤ .
(٥) ابن حجر العسقلاني ، (أحمد بن علي) ، تهذيب التهذيب جـ ٢ ، ص ٣٨ طبعة حيدر أباد (١٣٢٩ هـ) .
(٦) البخاري ، التاريخ الكبير ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .
(٧) الذهبي (محمد بن احمد) ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٦٢ حيدر أباد ، ١٣٣٤ هـ .
(٨) كابن سعد في طبقاته ج ٧ ص ١٣١ ، ص ١٣٢ ، وابن حجر في تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ١٣٨ ، وأبو نعيم في الحلية جـ ٣ ص ١٨٩ .
(٩) قال أبو زرعة عن جابر بن زيد "بصري أزدي ثقة الا انة يورد رواية عن جابر بن زيد حين سئل عن انتحال الإباضية له فقال : "أبرأ إلى الله من ذلك" (الجرح و التعديل : لأبي حاتم محمد بن أدريس الرازي مجلد ١ ص ٤٩٤ – ٤٩٥) ... وطبيعي أنه ليس من المعقول أن يقول جابر أنا إمامهم لسائله .

الدلائل الدقيقة تؤكد تماماً أن جابر بن زيد هو مؤسس المذهب الإباضى وهذا هو السبب الذى من أجله حبسه الحجاج بن يوسف الثقفى ثم نفاه بعد ذلك - إلى عمان .

ولعل ذكاء جابر بن زيد فى كتمان مذهبه سببا فى ذلك ، لأنه أباح للإباضية ستر أمرهم على سبيل التقية الدينية التى يشرع أمرها عند الإباضية فى طور السر والكتمان . وظهر زكاؤها واضحاً فى رفضه القضاء حين عرض عليه الحجاج منصب القضاء فأظهر له أنه ضعيف لا يستطيع تحمل هذه المسئولية حتى تبتعد أنظار المسئولين عنه وعن حركته فحين عرض عليه القضاء قال جابر "إنى أضعف من ذلك ، قال الحجاج وما مبلغ ضعفك ؟ قال : يقع بين المرأة وخادمها شر فما أحسن أن أصلح بينهما . قال إن هذا لهو الضعف" . واستطاع بذلك أن يموه على الحجاج أمره وقدراته المتعددة .

ويرجع الفضل فى تنظيم أسلوب الدعوة الإباضية إلى جابر بن زيد ... وكانت البصرة (١) مركزاً للدعوة ، ومنها كان الدعاة الذين عرفوا بحملة العلم - يتوجهون إلى الأمصار بعد تلقيهم أصول الدعوة على أيدى فقهاء المذهب وشيوخه . والمعروف أن أنصار المذهب بالبصرة كانوا يمارسون مهامهم فى طى السرية والكتمان فكانت مجالسهم فى سراديب تحت الأرض . وإمعاناً فى التخفى "كان يجلس أمام باب السرداب رجل يعمل القفاف وعلى فمه سلسلة يحركها إذا ما رأى شخصاً مقبلاً لينبه من بالداخل إلى التزام الصمت ريثما يمر من يشتبه فى أمره" (٢) .

وغالباً ما كانت هذه المجالس تقام فى بيوت النسوة العجائز منعاً للشبهة بل أن روادها كانوا يتنكرون فى ملابس النساء .

وتطلق المصادر الإباضية على هذه المجالس اسم الحلقة وفيها يتلقى الأتباع الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات هذا فضلا عن تبصيرهم بفنون الحكم ، وأساليب السياسة ، وإعدادهم لتقلد المناصب

---

(١) الخوارج فى بلاد المغرب د. عبد الرازق ص ٥٢ .
(٢) الشماخى : السير ص ١٢٤ .

والاضطلاع بأعبائها في مرحلة الظهور . وبعد ذلك يشرعون في المجاهرة بالعمل إذا ما توفر لهم "ما يوجب به التولية عليهم من العدة والعدد من الرجال" .

ومما يبين لنا أن جابر بن زيد كان المسئول عن التنظيم السرى الإباضى ما روى عند اعتقال أحد مشايخ الدعوة الإباضية المسمى أبو سفيان قنبر "وكان شيخاً كبيراً أخذ وجلد أربعمائة سوط على أن يدل على أحد من المسلمين فلم يفعل . قال جابر بن زيد وكنت قريبا منه ، وما كنت انتظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله" (١) .

ويبدو أن النشاط الإباضى فى عهد جابر بن زيد كان يمثل ضعفاً وقلقاً على الحجاج بن يوسف الثقفى ، ولهذا نجد أن الحجاج يعمد إلى نفيه إلى عمان مع أحد مشايخ الدعوة المسمى هبيرة .

ثالثاً : ابن أبى كريمة :

والحق أن مجهود جابر فى تنظيم الدعوة الإباضية كان مجهودا بارزاً حتى توفى سنة ٩٦ هـ - ٧٢٥ م . وخلفه أحد تلامذته البارزين المعروف بأبى عبيدة مسلم ابن أبى كريمة الذى قيل عنه أنه ظل يتلقى العلم أربعين عاماً وبعدها نصب نفسه لتعليم العلم .

وقد سجن فى عهد الحجاج ، وأفرج عنه بعد موت الحجاج ليخلف جابر بحق ويتصدى لتنظيم الإباضية وتنظيم أسلوب الدعوة إلى المذهب الإباضى ويساعده فى ذلك كبار أعوانه من أمثال أبى نوح ، وأبى مودود حاجب ، والربيع بن حبيب .

ولقد كان ابن أبى كريمة صاحب عقل مرتب منظم مخطط للإباضية فدبر ونظم وجمع أموالاً كثيرة وتمكن من شراء الأسلحة والمعدات لتظهر فى الوقت المناسب لاستخدامها فى الاستعانة على ظهور المذهب الإباضى وقد استطاع أعوانه نشر المذهب الإباضى فى الأطراف فى اليمن وكذلك بين المغاربة (٢) بل استطاعوا إعلان إمامة الظهور سنة ١٤٠هـ - ٧٥٧م .

---

(١) الشماخى : السير ص ٩٣ .

(٢) بعث ابن أبى كريمة بداعيته سلمة بن سعيد فى بداية القرن الثانى الهجرى لنشر الدعوة الإباضية بين المغاربة واستطاع أن يكسب مؤيدين فى بلاد المغرب الأدنى فى إقليم طرابلس وجبل نفوسة . =

ويبدو أن حسن التنظيم وسرية العمل والقيادة الحكيمة لرجال المذهب الإباضي ساعد على انتشار المذهب سواء كان ذلك في مرحلة إمامة جابر أو مرحلة إمامة ابن أبي كريمة .

ويجمل مهدي طالب الأسباب التي أدت إلى نجاح الدعوة الإباضية في هذه المرحلة فيما يأتي : [1] .

أولا : نظرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، ودراسته المستوعبة مشكلات المناطق التي كانت مستاءة من الحكم الأموي ، وعلاقة هذه المناطق بالسلطة المركزية من حيث القوة والضعف ، فعندما أدرك أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة أن الدولة الأموية في طريقها إلى الزوال أو عز إلى إباضية اليمن بالتعجيل بالثورة ولم يفكروا في الثورة من البصرة رغم أنها المراكز الأم لتنظيمها لأسباب أوجهها قرب البصرة من مراكز الحكم القوية ، ووجود عدد من الأحزاب الأخرى .

ثانيا : القيادة الجماعية للدعوة . إذ توفرت مجموعة من المشايخ الإباضية كمجلس شورى ، من ذوي القدرات التنظيمية في مساعدة ابن أبي كريمة ، كضمام بن السائب ، وأبو الحر بن الحصين ، وحاجب الذي كان مسئولا عن جميع النشاطات العسكرية . وقد قام بجمع المال والسلاح للثورة باليمن سنة ١٢٩ هـ إبان ضعف الدولة الأموية وقرب نهايتها .

ثالثا : المقدرة الفكرية التي تمتع بها الدعاة الإباضية ، وجذبهم لقلوب الناس لمذهبهم وقد كان ابن أبي كريمة عالما بليغا وفقيها بارزا .

كما كان سلفه جابر بن زيد من علماء الحديث ورجال الفقه الإسلامي الكبار .

رابعاً : الإخلاص والولاء المتناهي لهؤلاء القادة ، الذين أوقفوا حياتهم على الدعوة

= وبعد أن مات سلمة بن سعيد حل محله أبو عبد الله محمد بن أعبد الحميد بن مغيطر تلميذ ابن أبي كريمة بالبصرة وفي أيامه أصبح جبل نفوسة دار هجرة للمذهب الإباضي . وانتشر بعد ذلك انتشاراً سريعاً بين القبائل الأخرى مثل هوارة ولماية وزناته وسدارته وزواغة ولواته وفي مطماطة انتشر المذهب بها في عهد الداعية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم .

(١) الحركة الإباضية ص ٩٣ : ص ٩٥ .

لمذهبهم دون أى دوافع أو رغبات اجتماعية أو مادية كقول الداعية سلمة بن سعيد أول داعية أباضى ببلاد المغرب "وددت أن يظهر هذا الأمر - يعنى مذهب الإباضية - بالمغرب يوما واحدا من غدوة إلى ليل ، فما أبالى ضربة عنقى" .

خامساً : صلابة الدعاة فى مرحلة الكتمان والتخفى على التنظيم السرى رغم تعرضهم لصنوف التعذيب ، وظهر هذا واضحاً من مواقف الدعاة الصلبة وعدم التصريح بوجود مثل هذا التنظيم مما يجعل السلطتين الأموية والعباسية لا تعير أدنى اهتمام سياسى أو عسكرى لهذه القوة المتنامية فى السر والخفاء .

وبهذا نستطيع أن نفسر نجاح الإباضية [١] وبقائها حتى اليوم بينما اختفت جميع الفرق الخارجية الأخرى .

أما بالنسبة للشروط التى توجب إظهار الإمامة الإباضية وقيامها فيقول الإمام الإباضى أو اسحاق ابراهيم بن قيس الحضرمى : "والذى يوجب الإمامة ثلاث خصال :

أحداها : "قوة أهل الدعوة ، وذلك أن يغلب على ظنهم أن يغلبوا أهل الباطل" .

والثانية : "أن يكون أهل الدعوة أربعين رجلاً ، أحراراً بالغين أصحاء ليس منهم أعمى فصاعدا" .

والثالثة : أن يكون فيهم ستة رجال فصاعدا أهل علم ، بأصول الدين والفقه من ذوى ورع وصلاح فى الدين ، فإذا اجتمعت لأهل الدعوة هذا الوصف وجب أن يعقدوا الإمامة لأفضلهم فى الدين والعلم الورع [٢] وقد أقر الفقهاء الإباضية وجود إمامين فى آن واحد [٣] وقد أوضح الإمام أبو اسحق الحضرمى المؤهلات الضرورية فى الإمام القائد الإباضى ،

(١) نجحت الإباضية فى إقامة عدة دول كالدولة الإباضية فى عمان والدولة الرستمية فى تاهرت بالمغرب .

(٢) مختصر الخصال : مخطوط لأبى اسحق ورقة ٧٠ أ - ٧٠ ب .

(٣) وذلك مسايرة - للظروف والواقع الذى عاشته الإمامتان الإباضيتان المعاصرتان : الإمامة الرستمية فى "تاهرت" ١٦٠ هـ - ٢٩٦ هـ / ٧٧٦ - ٩٠٨ م فى المغرب والإمامة الإباضية بعمان ١٧٧ هـ - ٢٨٠ هـ / ٧٩٣ - ٨٩٣ م .

فقال [١] : "ولا تتم الإمامة لأحد إلا بوجود إحدى عشر خصلة :

أولها : أن يكون رجلا بالغا حراً عاقلاً .

الثانى : أن يكون ليس بأعمى ولا أصم .

الثالث : أن يكون ليس بأخرس .

الرابع : أن يكون فصيحاً بالعربية .

الخامس : أن يكون صحيحا ليس بزمن ، ولا مقطوع اليدين ولا الرجلين .

السادس : أن يكون من أهل العلم والورع فى الدين .

السابع : أن يعقد له من أهل الولاية ستة رجال أحرارا ، بالغين عاقلين ، من أفضل المسلمين فى العلم والورع فى الدين ، ليس فيهم أعمى فصاعدا .

الثامن : أن يكون أهلا لدعوة هؤلاء العلماء المسلمين بعقد الإمامة عليه .

التاسع : وأن لا يعقدوا لأحد قبله من المسلمين إلا أن يكون بينه بحر فإن لم يكن بينهما بحر كان الذى قبله داعية وليس بإمام .

العاشر : أن لا يعقدوا له ولغيره فى وقت واحد ولا يدرى أيهما من قبل وليس بينهما بحر ، فليس للواحد منهما إمامة ، ويرجع الأمر شورى بين المسلمين .

الحادى عشر : أن يكون ممن لم يقم عليه حد من قطع ولا جلد . والحق أن هذه الخصال والشروط لم تكن أصولا ثابتة فى اختيار الأئمة القادة عند الإباضية بل كثيرا ما تغيرت من وقت لآخر حسب الظروف السياسية والتطبيق العملى للمبادىء الإباضية كثيراً ما كان يحدث فيه تعديل ليتلاءم مع الظروف السياسية المختلفة وهذا سر من أسرار استمرارية الإباضية حتى وقتنا الحاضر .

---

(١) مختصر الخصال : ورقة ٧٠ ب .

ملحـــق

كتاب عبد الله بن أباض إلى عبد الملك بن مروان

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن أباض إلى عبد الملك بن مروان ، أما بعد : سلام عليك ، فإنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأوصيك بتقوى الله ، فإن العاقبة للتقوى والمرد إلى الله وأعلم أنه إنما يتقبل الله من المتقين . وقد جاءنى كتابك مع سنان بن عاصم ، وأنك كتبت إلى أن أكتب إليك بكتاب فكتبته إليك ، فمنه ما تعرف ومنه ما تنكر ، ولكن الذى تنكره ليس عند الله بمنكر ، وأما ما ذكرت من عثمان والذى عرضت به من شأن الأمة فإن الله ليس ينكر عليه أحد شهادته فى كتابه الذى أنزل على نبيه محمد ﷺ ، ان "من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون" (١) ، والفاسقون (٢) ، والكافرون" (٣) ثم أنى لم أكن أنكر لك من شأن عثمان شيئاً إلا والله تعلم أنه حق . وسأنزع لك من ذلك البينة من كتاب الله ، وسأخبرك خبر عثمان الذى طعنا عليه فيه ، وأبين شأنه وأمره . لقد كان عثمان كما ذكرت من قدمه فى الإسلام ولكن الله لم يجرّ العباد من الفتنة ، وذلك أن الله بعث محمداﷺ وأنزل عليه الكتاب وبين فيه كل أمر ، وفصل فيه كل حكم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون (٤) . فأحل فيه حلالا وحرم فيه حراما وحكم أحكاماً وفرض فرائض وحدودا . فقال : "تلك حدود الله فلا تقربوها" (٥) . وقال : تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون" (٦) . ثم أمر نبيه باتباع كتابه وقال : "واتبع ما أوحى إليك من ربك" (٧) . وقال : "فإذا قرآناه فاتبع قرآنه" (٨) . فعمل محمد ﷺ بأمر ربه ، ومعه عثمان ومن شاء الله من أصحابه ، لا يرونه يتعمد أحداً ولا يبدل حكما ولا يستحل

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٥ .

(٢) نص الآية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) "سورة المائدة آية ٤٧" .

(٣) نص الآية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) "سورة المائدة آية ٤٤" .

(٤) نص الآية (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمه لقوم يؤمنون) "سورة الأعراف آية ٥٢" .

(٥) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٦) سورة البقرة آية ٢٢٩ .

(٧) سورة الأحزاب آية ٢ .

(٨) سورة القيامة آية ١٨ .

حراماً ولا يحرم حلالا ولا يبدل فريضة . وكان رسول الله ﷺ يقول : "إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم" (١) .

فعمر ﷺ ما شاء الله تابعاً لما جاء به من عند الله ، مبلغاً لما ائتمنه الله عليه ، معلما للمؤمنين ، مبصرا لهم حتى توفاه الله ﷺ . ثم أورث الله عز وجل المسلمين الذى جاء به محمدَ ﷺ وهو كتابه الذى يهتدى من اهتدى باتباعه ولا يضل من ضل إلا بتركه . ثما قام من بعده أبو بكر على الناس فأخذ كتاب الله وعمل بسنة نبيه فلم يفارقه أحد من المسلمين ولم يعيبوا عليه فى حكم حكمه ولا قسم قسمه حتى فارق الدنيا وأهل الإسلام عنه راضون وله مجامعون . ثم قام من بعده عمر فكان قويا على الأمر ، شديدا على أهل النفاق ، يهتدى بمن كان قبله من المؤمنين ويعمل بكتاب الله . وابتلاه الله بفتوح من الدنيا بما لم يبل به صاحبيه ، وفارق الدنيا والدين ظاهر وكلمة الإسلام جامعة وشهادة المؤمنين له بالوفاء قائمة والمؤمنون شهداء الله فى الأرض . قال الله عز وجل : "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" (٢) . ثم استشار المؤمنين فتركها فيهم ، فولوا عثمان ففعل ما شاء الله بما يعرف الإسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض ، وأحدث أموراً لم يعمل بها صاحباه قبله ، وعهد الناس يومئذ قريب . منهم . فلما رأى المؤمنون ما أحدث أتوه وكلموه وذكروه بكتاب الله وسُنَّة من كان قبله ، فشق عليه أن ذكروه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وآثار من كان قبله من المؤمنين ، "ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه "ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون" (٣) ، وأنا أبين لك يا عبد الملك بن مروان ما أنكر المسلمون على عثمان وفارقوه عليه ، عسى أن تكون غافلاً فأذكرك ، أو جاهلاً فأعرفك . فلا يحملنك هواء عثمان يا عبد الملك أن تكذب بآيات الله وتعرض عنها فإنه لا يغنى عنك من الله شيء ، فالله الله يا عبد الملك قبل التناوش من مكان بعيد وقبل أن تكون لزاما وإنه كان ممن طعن عليه المسلمون وفارقوه وفارقناه عليه . قال الله عز وجل : "ومن أظلم ممن منع مساجد الله

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥ .

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٣) سورة السجدة آية ٢٢ .

أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم" (١) ، وكان عثمان أول من منع مساجد الله أن يقض فيها كتاب الله ، ومما نقمنا عليه وفارقناه أن الله عز وجل قال : "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون ووجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين" فكان خيار هذه الأمة قد طردهم ونفاهم . فكان من نفى من أهل المدينة أبا ذر الغفارى ومسلم الجهنى ونافع بن الحطام ، ونفى من أهل الكوفة كعب وجندب بن زهير قاتل الساحر ، ونفى عمر بن زرارة ويزيد بن صحوان وأسود بن دويح ويزيد بن قيس الهمدانى وكردوس بن الحضرمى فى أناس كثير من أهل الكوفة . ونفى من أهل البصرة عامر بن عبد الله ومدعور العنبرى ومن لا يستطاع عدّهم من المؤمنين . وما نقمنا عليه أنه أمر أخاه الوليد بن عقبة على الناس فكان يلعب بالسحر ويصلى بالناس سكران ، فاسق فى دين الله وانما أمره من أجل قرابته ومما نقمنا عليه جعل المال دولة بين الأغنياء ، وقد قال الله عز وجل "كى لا يكون دولة بين الأغنياء" (٢) فبدل فيه كلام الله واتبع هواه ومما نقمنا عليه أنه منع واضع القطر وحماها لنفسه ولأهله ومنع الرزق الذى أنزل الله لعباده متاعاً لهم ولأنعامهم . وقد قال الله عز وجل "قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آالله أذن لكم أم على الله تفترون" (٣) . ومما نقمنا عليه أنه أول من تعدى فى الصدقات . وقد قال الله . "إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... إلى قوله فريضة من الله والله عليم حكيم" (٤) . وقال : "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا" (٥) والذى أحدث عثمان منعه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وأنقص أهل بدر من عطاياهم ألف ألف ، وكنز الذهب والفضة ولم ينفقها فى سبيل الله ، وقال الله عز وجل "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) سورة يونس ٥٩ .

(٣) نص الآية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ، سورة التوبة آية ٦٠ .

(٤) نص الآية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

سبيل الله فبشره بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم" الآية [١] مما نقمنا عليه كان يضم كل ضالة إلى إبله ولا يردها ولا يعرفها ، وكان يأخذها من الإبل والغنم إذا وجدها عند أحد وإن كانوا قد أسلموا عليها ، وكان لهم فى حكم الله ما أسلموا عليه .وقد قال الله عز وجل : "ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين" [٢] . وقال : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم" [٣] ومما نقمنا عليه أنه أخذ خمس الله لنفسه وأعطى منه أقاربه وكان ذلك تبديلاً لحكم الله وفرض الله الخمس "لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... إلى قوله ... والله على كل شيء قدير" [٤] . ومما نقمنا عليه منع أهل البرحين وأهل عمان أن يبيعوا شيئاً من طعامهم حتى يباع طعام الإمارة وذلك تحريم لما أحل الله . "وأحل الله البيع وحرم الربا" [٥] . وكان من عمل عثمان أنه يحكم بغير ما أنزل الله وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيه . وقال الله : "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً [٦] "وقال : "ومن لم يحكم بما أنزل الله فئولئك هم الظالمون والكافرون والفاسقون [٧] وقال : "ألا لعنة الله على الظالمين" [٨] . وقال : "ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً" [٩] . وقال : "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار" [١٠] وقال : "وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون" [١١] .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٤ (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

(٢) سورة الأعراف آية ٨٥ .

(٣) سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم أن الله كان بكم رحيماً) آية ٢٩ .

(٤) نص الآية (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسَهُ وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان والله على كل شيء قدير) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(٦) سورة النساء آية ١١٥ .

(٧) سورة المائدة آية ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٧ .

(٨) سورة هود آية ١٨ .

(٩) سورة النساء آية ٥٢ .

(١٠) سورة هود آية ١١٣ .

(١١) سورة يونس آية ٣٣ .

وكل هذه الآيات تشهد على عثمان وإنما شهدنا عليه بما شهدت عليه الآيات . والله يشهد بما أنزل إليكم أنزله بعلمه والملائكة (هكذا) يشهدون وكفى بالله شهيداً [١] . فلما رأى المسلمون الذين أتى به عثمان من معصية الله المؤمنون شهداء الله في الأرض ناظرون في أعمال الناس وقال الله عز وجل : "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" [٢] وترك الخصومة الخصمين في الحق والباطل ، ووقع ما وعد الله من الفتن وقد قال الله عز وجل : "ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" [٣] . وعلم المسلمون أن طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليس ، فساروا إلى عثمان من أطراف الأرض ، واجتمعوا إليه ملأ من المهاجرين والأنصار وعامة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتوه فذكروه بالله وأخبروه بالذي أتى من معاصي الله ، فزعم أنه يعرف الذي يقولون وأنه يتوب إلى الله عز وجل منه ويراجع الحق فقبلوا الذي أتاهم به من الاعتراف بالذنب والتوبة إلى الله عز وجل ومراجعة الحق وكان حقا على أهل الإسلام إذا التقوا بالحق أن يقبلوه ويجامعوه ما استقام على الحق فلما تفرقوا عنه نكث الذي عاهدهم عليه وعاد إلى أعظم من الذي تاب منه . فكتب إلى عماله في أدبارهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه العهود رجعوا إليه وقتلوه بحكم الله وقد قال الله عز وجل : "وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون" [٤] وقد عمل بكتاب الله وجامع المسلمين زماناً ثم ارتد على عقبيه . وقد قال الله عز وجل "ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم" [٥] فهذا وأمثاله من خبر عثمان هو الذي فارقه عليه المؤمنون وفارقناه وطعنوا عليه فيه وطعنا نحن اليوم فيه . وذكرت

---

(١) نص الآية الكريمة (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) سورة النساء آية ١٦٦ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٥ .

(٣) سورة العنكبوت آية ١ – ٣ .

(٤) سورة التوبة آية ١٢ .

(٥) سورة محمد آية ٢٥ .

كونه مع رسول الله ﷺ وخلته معه ، فقد كان على بن أبى طالب أقرب قرابة إلى رسول الله وأعظم خلة وأقدم هجرة وأسبق إسلاما وأنت تشهد له بذلك وأنا بعد ذلك ، فكيف كانت قرابته وخلته هل كانت نجاة إذا ترك الحق أم هلاكاً ؟ ، واعلم أن علامة كفر هذه الأمة إذا تركوا الحكم بما أنزل الله محكموا بغير ما أنزل الله "فمن أصدق من الله حكما لقوم يوقنون" (١) وقال : "فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون" (٢) ، فلا يغرنك يا عبد الملك بن مروان عز نفسك ولا تسند دينك إلى الرجال فإنهم يستدرجون من حيث لا يعلمون . فإن أملك الأعمال خواتمها وكتاب الله جديد أبدا لا ينطق إلا بالحق ، أجارنا الله باتباعه أن نبغى أو نضل ، فاعتصم بحبل الله يا عبد الملك واعتصم بالله يهديك إلى صراط مستقيم . قال الله عز وجل : "ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم" (٣) . وكتاب الله هو حبل الله المتين الذى أمر المؤمنين أن يعتصموا به فقال : "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" (٤) فأنشدك الله أن تتدبر معانى القرآن وتكون معتداً به مخاصماً به قال الله عز وجل : "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" (٥) .

وأما قولك فى معاوية أن الله أقام معاوية وعجل نصره وبلج حجته وأظهره على عدوه بالطلب لدم عثمان . فإن كنت تعتبر الدين من قبل الدولة والغلبة فى الدنيا فإنا لا نعتبره من قبل ذلك ، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعلمون ، وظهر المشركون على المؤمنين ليبلى المؤمنين ويملى الكافرين وقال : "وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين" (٦) وانظر ما أصاب المؤمنين من المشركين يوم أحد ، وانظر كيف ظهر قتلة ابن عفان عليه وعلى شيعته يوم الدار وظهر على على أهل البصرة وهم شيعة عثمان ، وظهر المختار على زيد وأصحابه وهم شيعتهم ، وظهر مصعب على المختار ، وظهر أهل الشام على

---

(١) سورة المائدة آية ٥٠ .
(٢) سورة الجاثية آية ٦ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٠١ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٠٣ .
(٥) سورة محمد آية ٢٤
(٦) سورة آل عمران آية ١٤٠ – ١٤١ .

أهل المدينة وظهر الزبير على أهل الشام بمكة فلا تعتبر الدين من قبل الدولة ، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض . فقد أعطى الله فرعون ملكاً وظهر فى الأرض وأعطى الذى حاج إبراهم فى ربه ملكاً . ثم أن معاوية إنما اشترى الإمارة من الحسن بن على ، ولم يف له بما اشترطه عليه وعاهد الله العظيم ليوفين له . وقد قال الله عز وجل . "ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها" الآية (١) . ولا تسأل عن معاوية وعن صناعته غيرى لأنى قد أدركته ورأيت عمله وسيرته ، ولا أعلم من الناس أحداً أترك للقسمة التى قسمها الله ، ولا لحكم حكمه الله ، ولا أسفك لدم حرمه الله ، منه فلو يصب من البلاء إلا دم ابن سمية لكان فيه ما يكفره . ثم استخلف ابنه يزيد فاسقا لعينا كافرا شاربا للخمر فيكفيه من الشر فلا يخفى عمل معاوية ويزيد على كل عاقل ، فاتق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك فى معاوية . فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون فى معاوية ويزيد ويعيبون عليهما كثيرا فما (هكذا) يصنعون . فمن يتول عثمان ومن معه فإنى أشهد الله وملائكته أنى منهم برىء ، أعداء لهم بأيدينا والسنتنا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا ونحاسب بذلك عند الله . وكتبت إلى تعذرنى الغلو فى الدين . أعوذ بالله من الغلو . وسأبين لك ما الغلو فى الدين إذا جهلته . والغلو فى الدين أن يقال على الله غير الحق ويعمل بغير كتاب الله الذى بين ، وسنة نبيه التى سن . وقال الله : "يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق" (٢) وقال : "يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق" (٣) كما على عثمان ، والأئمة بعده ، وأنت بعد على سبيلهم وطاعتهم – تجامعهم على معصية الله وتتبعهم ، وقد اتبعوا أهواءهم واتبعتهم عليها . وقال الله عز وجل "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل" (٤) فهؤلاء أهل الغلو فى الدين فليس من غضب لله حين عصى ورضى بحكم الله ودعا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه وسنة المؤمنين يعد بغال فى الدين . وكتبت إلى تعرض بالخوارج وتزعم انهم يغلون فى دين اللهو يتبعون غير سبيل المؤمنين ويفارقون أهل الإسلام . وأنا أبين لك سبيلهم . هم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من بدعة وفارقوه حين ترك حكم الله وهم أصحاب الزبير وطلحة حين نكثا

---

(١) سورة النحل آية ٩١ .

(٢) سورة النساء آية ١٧١ .

(٣) سورة المائدة آية ٧٧ .

(٤) سورة المائدة آية ٧٧ .

وأصحاب معاوية حين بغى وأصحاب علي حين بدل كتاب الله وحكم عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص فهم فارقوا هؤلاء كلهم وأبوا أن يفرقوا بحكم البشر دون حكم الله . فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة . كانوا يتولون في دينهم وسنة نبي الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويدعون إلى سبيلهم ويرضون على ذلك كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يفارقون . وقد علم من عرفهم وعرف حالهم أنهم كانوا أحسن عملاً وأشد قتالا في سبيل الله . هذا خبر الخوارج شهد الله والملائكة أنا لمن عاداهم اعداؤنا ولمن أولاهم أولياءونا بالسنتنا وايدينا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه عند ربنا . إنا براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه . لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منهم .

وأنت كتبت إلي أن أكتب إليك بجواب كتابك واجتهد لك في النصيحة ونكرتني بالله وأفضل ما ذكرتني به أن قلت : "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب ، الآية [1] وإذ أخذ لله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فقد بينت لك وأخبرتك خبر الأئمة ، وكان حقا على أن أنصح لك ، فإن الله لم يتخذني عبدا لأكفر به ولا أن أخادع الناس بشيء ليس في نفسي وأخالف إلي ما أنهى عنه أدعوكم إلي كتاب لله وسنة نبيه ﷺ لتحل (الحلال ؟) وتحرم الحرام . ولا تظلموا الناس شيئاً ، وأن يكون كتاب الله حكما بيني وبينكم فيما اختلفنا فيه ، وأن نتولى من تولي الله وأن نبرأ ممن تبرأ الله منه وأن نطيع من أمر الله بطاعته ، ونعصي من أمر الله بمعصيته في كتابه فهذا الذي أدركنا عليه نبينا ﷺ وأن هذه الأمة لم تسفك دما إلا حين ترك كتاب الله وسنة نبيه وقد قال الله عز وجل : "وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب" [2] والقرآن هو السبيل الواضح الذي هدى الله به من كان قبلنا محمد وأصحابه الخليفيتين الصالحين ولا يضل من اتبعه ولا يهتدي من تركه وقال : "وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" [3] ، فاحذر أن تتفرق بك السبل وتتبع هواك ، فإن الناس إنما يتبعون في الدنيا ، والآخرة إمامين : إمام هدى وإمام

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٩ .

(٢) سورة الشورى آية ١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٣ .

ضلالة ، فإمام الهدى الذى يتبع كلام الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله وهو الذى قال عز وجل : "وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا" [١] وهؤلاء هم الأئمة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم .

وأما أئمة الضلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويقسمون بغير قسمة الله ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله فهؤلاء الذين قال الله عز وجل فيهم : "وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون" [٢] ، وفيهم قال : "ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً" [٣] وقال : "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه" [٤] وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . فماذا بعد الحق إلا الضلال . فلا تضربن عنك الذكر صفحاً ، ولا تشكن فى كتاب الله وقد كتبت إلى بمرجوع كتابك فانشدك الله لما قرأته وأنت مشغول حتى تتفرغ له وتتدبر معانيه وتنظر فيه بعين البصيرة . واكتب إلى جواب كتابى إن استطعت وانزع إلى الشواهد من كتاب الله والبينة منه . فاصدق بذلك قولك ، ولا تعرض لى بالدنيا فإنه لا رغبة لى فى الدنيا ، وليست من حاجتى ، ولكن لتكون نصيحتك لى فى الدين ولنا بعد الموت . فإن ذلك أفضل النصيحة . والله قدير أن يجمع بيننا على الطاعة فإنه لا خير فيمن لم يكن على طاعة الله . وبالله التوفيق وفيه الرضا .

والسلام عليك .

(البرادى ، الجواهر المنتقاه ، ص ١٥٦ – ١٦٧)

---

(١) سورة الأنبياء آية ٧٣ .

(٢) سورة القصص آية ٤١ .

(٣) سورة الفرقان آية ٥٢ .

(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

أهم المراجع

- الإباضية : "معمر" : [على يحيى معمر الإباضى] المطبعة العربية .

- الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات فى القديم والجديد .

[معمر] : على يحيى معمر الإباضى - المطبعة العربية - عزداية الجزائر ١٩٨٧

- الأدلة المرضية فى دحض ما نُسِبَ إلى الإباضية [اليحمدى] : [بدر الدين هلال حمود اليحمدى الإباضى] طبعة مطابع النهضة بمسقط ١٩٨٨ .

- الأصول التاريخية للفرق الإباضية للدكتور عوض خليفات - نشر وزارة التراث والثقافة عمان ١٩٨٢ .

- أصدق المناهج فى تمييز الإباضية من الخوارج تأليف سالم بن حمود السيبانى تحقيق (سيدة إسماعيل الكاشف) - مطابع سجل العرب ١٩٧٩ - نشر وزارة التراث القومى والثقافة - عمان .

- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى : «فخر الدين محمد بن عمر الرازى ت ٦٠٦ هـ» نشر مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٣٨ بمراجعة الدكتور النشار .

- الإمامة والسياسة لابن قتيبة : [عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ] طبعة القاهرة .

- البداية والنهاية لابن كثير : [عماد الدين أبى» الفدا إسماعيل بن عمر المتوفى ٧٧٤ هـ] - طبعة بيروت ١٩٦٦ .

- البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها : للدكتور عزت على عيد عطية (رسالة دكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر ١٩٧٢) .

- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت ٢٧٦ هـ بضبط وتصحيح محمد زهدى النجار - نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

- تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر العربى ١٩٨٠ .

- تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين للدكتور على مصطفى الغرابى طبعة المكتبة الحسينية بالقاهرة ١٩٤٨ .

- تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة طبعة دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٧١ .

- تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ لديوز [على محمد ديوز الإباضى] مطبعة القاهرة ١٩٦٣

- التبصير فى الدين للإسفرايينى : [أبو مظفر الإسفرايينى ٤٧١ هـ] طبع مطبعة الأنوار- ١٩٤٠ ، وطبعة القاهرة ١٩٥٥ .

- تفسير القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ت ٦٧١ هـ) طبعة دار الكتب المصرية .

- تلبيس ابليس لابن الجوزى : [عبد الرحمن بن أبى الحسن على ابن محمد المتوفى ٥٩٧ هـ] طبعة أنصار السنة .

- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطى : [أبى الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى - الشافعى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ] طبعة المثنى ببغداد .

- الحركة الإباضية فى المشرق العربى لمهدى طالب هاشم طبعة القاهرة . ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

- الخوارج فى بلاد المغرب للدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق طبعة الدار البيضاء

- الخوارج الحروريون للدكتور أحمد حجازى السقا مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٠ .

- دراسات إسلامية فى الأصول الإباضية [أعوشت] (بكير بن سعيد أعوشت - الإباضى) الطبعة الأولى ١٩٨٢ مطبعة البعث قسنطينة الجزائر .

- السير للشماخى : [أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخى ت ٩٢٨ هـ - القاهرة - طبع حجر] .

- سنن أبي داود [سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى المتوفى ٢٧٥ هـ - طبعة التجارية بمصر] .

- طبقات المشايخ بالمغرب لأبى العباس أحمد بن سعيد الدرجينى جـ ١ تحقيق ابراهيم طلاى طبعة مطبعة البعث قسنطينة الجزائر ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

- صحيح البخارى [الجامع المسند الصحيح] للبخارى : (أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن اسماعيل بن إبراهيم بن الأحنف يزدزيه البخارى ت ٢٥٦ هـ) طبعة الشعب .

- صحيح مسلم [الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ت ٢٦١ هـ طبعة الشعب .

- الصديق أبو بكر للدكتور محمد حسين هيكل طبعة دار المعارف بالقاهرة .

- طبقات طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الإباضى طبعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م عمان .

- فجر الإسلام ٣ ج ١ للأستاذ أحمد أمين طبعة القاهرة ١٩٢٨ .

- الفرق بين الإباضية والخوارج لأبى اسحق إبراهيم أطفيش الإباضى .

- الفرق بين الفرق للبغدادى [عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى ت ٤٢٠ هـ] تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد رحمه الله نشر مكتبة صبيح .

- الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهرى الأندلى المتوفى ٤٥٦ هـ طبعة القاهرة ١٣١٧ وطبعة السلام العالمية .

- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد [أبو العباس محمد بن يزيد ت ٨٩٨ م] طبعة مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ .

- الكامل فى لتاريخ لابن الأثير [محمد بن محمد بن عبد الكريم بعد عبد الواحد الشيبانى المتوفى ٦٣٠ هـ] طبعة القاهرة ١٣٠٢ هـ .

- كتاب السير : السماخى [أحمد بن سعيد] طبعة حجرية القاهرة ١٨٨٤ .

- كتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى [محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الزارى] طبعة حيدر أباد ١٣٥٧ هـ .

- مختصر كتاب الفرق بين الفرق للرّسعنى : [عبد الرازق ابن رزق الله بن أبى بكر بن خلف الرُّسْعنى] . طبعة مطبعة الهلال بمصر ١٩٢٤ .

- مختصر تاريخ الإباضية : أبو ربيع سليمان بن عبد الله البارونى ط ٣ مطابع العالمية روى سلطة عمان .

- المستدرك : للحاكم : [أبو عبد الله بن عبد الله بن محمد ابن حمدوية بن نعيم الضبى النيسابورى المتوفى ٤٠٥ ٥٣ ط الهند .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل [أحمد بن محمد بن حنبل ت ٢٤١ ٥٣] طبعة الحلبى بالقاهرة .

- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى طبعة إحياء التراث العربى بالقاهرة .

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعرى [أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ت ٣٣٠ ٥٣] طبعة النهضة المصرية ١٩٥٠ م بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

- الملل والنحل للشهرستانى [محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ ٥٣] طبعة القاهرة ١٩٥٦ وبهامش كتاب الفصل طبعة السلام العالمية .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى : [تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥] . طبعة بولاق ١٢٧٠ ٥٣ ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، وطبعة دار الندى بدمشق ١٩٩٠م .

- المنية والأمل لابن المرتضى : [محمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى المعروف بابن الوزير ت ٥٣٨٤٠) طبعة حيدر أباد ١٣١٦ ٥٣ .

- الموطأ للإمام مالك : [الإمام مالك بن أنس المتوفى ١٧٩ ٥٣] طبعة الشعب .

فهرست الكتاب

الباب الأول : الخوارج .

الباب الثانى : الإباضيـــة

من مؤلفات الدكتور عامر النجار

١ - كتاب الصلاة طبعة ثالثة - دار المعارف بالقاهرة .

٢ - الخوارج عقيدة وفكراً وفلسفة طبعة ثالثة - دار المعارف بالقاهرة

٣ - الطهارة فى الإسلام طبعة ثالثة - دار المعارف بالقاهرة .

٤ - الطرق الصوفية فى مصر طبعة رابعة - دار المعارف بالقاهرة .

٥ - فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية طبعة ثانية - دار المعارف بالقاهرة .

٦ - نظرات فى فكر الغزالى ط ثانية - دار المعارف بالقاهرة .

٧ - التصوف النفسى ط أولى - دار المعارف بالقاهرة .

٨ - علم الكلام : تعريفه وعوامل نشأته ط أولى - دار المعارف بالقاهرة .

رقم الإيداع	٩٣ / ٢٢٩٦
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977 - 02 - 3966 - 6

٣ / ٩٢ / ٣٢

جوليفر ستار للطباعة


١٢٠٧٤٨